

# حَيَاة الْقُلُوبِ

تفسير كلام علام الغيوب

سعيد بن مصطفى زيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ



## مُتَكَلِّمًا

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّهِ، فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>١</sup>.

﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾<sup>٢</sup>.

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا \* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ

يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾<sup>٣</sup>.

وبعد فهذا هو الجزء السادس عشر من كتاب: (حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عَلَّامِ الْغُيُوبِ)، أسأل الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه، وأن يتقبله بفضله ومنه وكرمه.

وكتبه / سعيد بن مصطفى دياب

الدوحة في: ٢٦ شوال ١٤٤٧ هـ

الموافق: ١٤ / ٤ / ٢٠٢٦ م

١ - سورة آل عمران: الآية / ١٠٢

٢ - سورة النساء: الآية / ١

٣ - سورة الأحزاب: الآية / ٧٠، ٧١

## تنمة الكلام على تفسير سورة الكهف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. الآية/ ٧٧، ٧٨

يقول الله تعالى: فانطلق موسى والخضر حتى إذا أتيا أهل قرية سألا أهلها الطعام فلم يطعموهما، ولم يضيفوهما، والاستطعام: سؤال الطعام، والمراد به هنا: سؤال الضيافة والقرى. يقال: ضافه: إذا كان له ضيفاً، وأضافه وضيّفه: أنزله وجعله ضيفه.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾.

الانقضاض: السقوط بسرعة، قال فوجدا في القرية جداراً مائلاً يكاد أن يسقط، فأقامه الخضر، وإقامة الجدار: تسوية ميله، وردّه إلى حالة الاستقامة، والانقضاض السقوط وفي الحديث قال سعيد بن جبّير: «أَيْكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ»؟<sup>١</sup>

وفي الحديث: "أَوْمَأَ يَدِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ سُفْيَانُ كَأَنَّهُ يَمْسَحُ شَيْئاً إِلَى فَوْقِ"<sup>٢</sup>.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾.

أي: قال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾، أي: لو شئت لأخذت عليه أجراً، واتخذ افتعل من اتخذ بمعنى أخذ، وإنما اعترض موسى لأنه الحال كانت حال اضطرارٍ وافتقارٍ إلى المطعم، وقد ألزمتها الحاجة إلى آخر كسب المرء، وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

أي: قال الخضر لموسى هذا الاعتراض الثالث سبب فراقنا بحكم ما شرطت على نفسك بقولك: ﴿إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

١ - رواه مسلم - كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث رقم: ٢٢٠

٢ - رواه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث رقم: ٣٤٠١



وإضافة الفراق إلى البين من إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع.

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قال سأخبرك بتفسير ما لم تستطع عليه صبراً.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَحَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَهُمَا رُحْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾. الآية / ٧٩ - ٨١

قال الخضر لموسى: أما السفينة فكانت لقوم ضعفاء يعملون بها في البحر، فأردت أن أجعلها ذات عيب لئلا يأخذها الملك الظالم.

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

أي: وكان أمامهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، كما في قراءة أبي بن كعب، وابن عباس، ولفظ: (وراء) من ألفاظ الأضداد يطلق ويراد به الأمام والخلف، ويطلق على كل ما توارى عنك، سواء كان خلفك كان أو أمامك، والمراد هنا أمامهم؛ قال ابن عباس والسدي وقتادة والفراء وأبو عبيدة رحمهم الله: أي: أمامهم. وكان ابن عباس يقرأ: (وكان أمامهم ملك).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]، وقال لبيد:

أليس ورائي إن تراخت منيتي \*\*\*\*\* لزوم العصا تُحْنِي عليها الأصابع

﴿وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾.

قال وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين، روى الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الغلام الذي قتله صاحب موسى طبع يوم طبع كافراً»<sup>١</sup>.

﴿فَحَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

قال سعيد بن جبير: فحشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعه على دينه.

قال ابن جرير: الخشية والخوف تُوجَّهُهما العربُ إلى معنى الظنِّ، وتُوجَّهُ هذه الحروفُ إلى معنى العلم بالشيء الذي يُدرِكُ من غيرِ جهةِ الحِسِّ والعيانِ.<sup>٢</sup>

ومن ذكر الخوف بمعنى العلم قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ﴾ [البقرة: ١٨٢]، أي: علم.

وقيل: معنى قوله: ﴿فَحَشِينَا﴾ في هذا الموضع: كرهنا؛ لأن الله لا يخشى.

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَهُمَا رُحْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو: بفتح الباء وتشديد الدال ﴿يُبْدِيَهُمَا﴾، وقرأ الباقون بإسكان الباء وتخفيف الدال، ﴿يُبْدِيَهُمَا﴾، وهما لغتان وقيل: "التبديل": تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم، و"الإبدال": رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه.

﴿حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ أي: خيرا منه ديناً وصلاًحاً، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أرحم بهما من الأول، قال قتادة:

أي: أبرّ بالديه. والرُّحْمُ مصدرٌ كالرحمة والمرحمة.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. الآية / ٨٢

١ - رواه مسلم - كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، حديث رقم: ٢٣٨٠

٢ - تفسير الطبري (٣٥٨ / ١٥)



يخبر الله تعالى عن الخضر أنه قال لموسى: وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين من أهل تلك المدينة، وكان تحت الجدار كنز من مال، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ هُمَا﴾. [الكهف: ٨٢] قَالَ: «ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ»<sup>١</sup>.

حديث ضعيف لا تقوم به حجة.

وقيل: كان الكنز صحفًا فيها علم؛ عن ابن عباس: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ هُمَا﴾. قال: كان تحته كنز علم.

وقال الحسن في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ هُمَا﴾. قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عَجَبُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ كَيْفَ يَحْزَنُ! وَعَجَبُ مَنْ يُوقِنُ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ! وَعَجَبُ مَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا! لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.<sup>٢</sup>

والراجح القول الأول؛ لأن الكنز في كلام العرب أن الكنز اسم لما يُكَنَزُ من المال.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

هذا بيان للعلة التي من أجلها حفظ الله تعالى على الغلامين كنزهما.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

قال الخضر: فأراد ربك أن يبلغ اليتيمين مبلغ الرجال ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار الذي أقمته ميله، وإنما فعلتُ فعلى هذا بالجدار رحمةً من ربك لليتينين.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

يقول: وما فعلتُ ما فعلتُهُ من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار عن رأيي ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلتُهُ عن أمر الله لي أن أفعله، وهو دليل على نبوته.

١ - رواه الترمذي - أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة الكهف، حديث رقم:

٣١٥٢، بسند ضعيف

٢ - رواه ابن جرير (١٥ / ٣٦٤)

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

يقول: ذلك الذي ذكرته لك تفسيرٌ لتلك الأفعال التي استنكرتها مني ولم تسطع عليها الصبر على رؤيتها، وإنما قال هنا: ﴿تَسْطِعُ﴾؛ لأنه لما انكشف له الأمر وتجلي له وجه الحكمة، خف الأمر عليه، وقال الآية الأخرى: ﴿تَسْتَطِيعُ﴾، لثقل الأمر عليه قبل ظهور الحكمة، وفي تستطيع من الثقل والشدّة ما ليس في تسطع، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.  
الآية/ ٨٣ - ٨٦

يقول الله تعالى لرسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ويسألونك يا محمدُ يعني مشركي قريش عن ذي القرنين ما كان شأنه، وما قصته، وكان مشركوا قريش قد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر اليهود عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجيب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وما كان نبأه، وعن الروح ما هو، وتقدم جوابه في الروح وقصة أصحاب الكهف، وفي خبر ذي القرنين قال الله تعالى له: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، أي: سأقصُّ عليكم منه خبراً تعرفون به قصته، ويتجلى لكم أمره.

وَعَنْ حَبِيبِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ كَيْفَ بَلَغَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، سُجِّرَ لَهُ السَّحَابُ، وَمُدَّتْ لَهُ الْأَسْبَابُ، وَبُسِطَ لَهُ النُّورُ. فَقَالَ: أَرِيدُكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ الرَّجُلُ وَسَكَتَ عَلِيٌّ»<sup>١</sup>.

وليس هو الإسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني تلميذ أرسطو، باني الإسكندرية فإنه وثني، وذو القرنين مؤمن موحد.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

١ - رواه الضياء المقدسي في المختارة - رقم: ٤٠٩



أي: يمكننا له أمره في الأرض من التصرف فيها كيف شاء وآتيناه من كل شيء أرادته وتوجه إليه سبباً وصلةً توصله إليه من العلم والقدرة.

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾.

الفاء هي الفصيحة، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة، والمراد: أراد بلوغ المغرب فاتَّبَعَ طريقاً وسبباً من الأسباب التي أوتيتها يوصله إليه حتى بلغ مقصوده.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

الحمئة أي ذات حمأة، والحمأ الطين؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، أي: اتجه في سيره إلى جهة المغرب بالنسبة إلى بلاده، فوجد الشمس كأنها تغرب في عين ماء فيها طين، وهذا بالنسبة لنظر الناظر لا إلى حقيقة الأمر فإن جرم الشمس أعظم بكثير جدا من الأرض.

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

أي: ووجد عند تلك العين قوماً دخلوا تحت حكمه وسلطانه، وخيره الله تعالى فيهم بين الأمرين التعذيب واللين والرفق بهم، فقال: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾؛ أي: إما أن تقتل من عصاك منهم وأبي إلا الشرك بالله تعالى، ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾؛ أي: وإما أن تأسره، فتعلمهم الدين، وترشدهم إلى أسباب الهداية.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا﴾ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٨٨) ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾. الآية/ ٨٧ - ٩١

قال أما من آثر الكفر بالله تعالى ولم يرجع عن الشرك، والظلم هنا معناه الكفر، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي: بالقتل، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾، ثم يرجع إلى ربه تعالى فيعذبه عذابًا تنكره الأوهام لعظمه وهوله.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

وأما من آمن وعمل ما يقتضيه الإيمان من الأعمال الصالحة ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، فله المثوبة الحسنى جزاءً إحسانه بالإيمان والعمل الصالح، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، بالنصب والتنوين، فيكون المعنى: فله الحسنى جزاءً، والحسنى: الجنة، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦]، وقرأ الباقون: ﴿جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ بالرفع والإضافة، فيكون المعنى: فله الحسنى: الجنة أضاف الجزاء إليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ٩]، ويحتمل أن يكون المعنى: وأما مَنْ آمَنَ وعمل صالحًا فله جزاؤها، يعني: جزاء هذه الأفعال الحسنة.

﴿وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

أي: وسنُعَلِّمُهُ في الدنيا ما يتيسر لنا تعليمه مما يقربه إلى الله، وسنرفق به ونُلِينُ له القول، ونقول له قولاً معروفًا.

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا﴾.

أي: ثم سار وسلك طرقًا ومنازل، توصله إلى مقصده حتى بلغه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾.

حتى إذا بلغ أول موضع على وجه الأرض تطلع عليه الشمس وجد قومًا بأرض ليس فيها جبال يأوون إليها، وليس لهم بناء يكنهم منها، ولا أشجار تظلمهم، ولا ملابس تسترهم من حرها.

قال سعيد بن جبیر: كانوا حُمْرًا قَصَارًا، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك.



وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تثبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم.

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾، أي: كما حكم في القوم الذين هم عند مغرب الشمس، حكم في الذين عند مطلعها كذلك، وقد أحطنا علماً بجميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾. الآية/ ٩٢ - ٩٥

يقول الله تعالى: ثم سار وسلك طرقاً ومنازل، توصله إلى مقصده حتى إذا بلغ بين السدين، وهما جبلان، قال ابن عباس: هما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما حاجزاً بين يأجوج ومأجوج ومن سواهم.

وقرى: ﴿السَّدَّيْنِ﴾ بفتح السين، وضمها، وقيل: هما لغتان، وقال أبو عبيدة: السد مضموم إذا كان مخلوقاً من فعل الله تعالى، فإن كان من فعل الآدميين فهو سد مفتوح.

وقال أبو عمرو بن العلاء: السد بالفتح هو الحاجز بينك وبين الشيء، والسد بالضم ما كان من غشاوة في العين.

﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.

أي: لا يعرفون الكلام إلا بلسانهم، فلا يفهمون ما يقال لهم، ولا يفهم الناس ما يقولونه؛ قال ابن عباس: يريد لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بضم الياء وكسر القاف، ومعناه: لا يفقه إنسان كلامهم.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: قالوا يا ذا القرنين إن من وراء هذين السدين قبيلتين يقال لإحدهما يأجوج، والأخرى يأجوج، مفسدون في الأرض يقتل من جاورهم وإفساد أموالهم، وزرورهم.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

قولهم: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، من حسن الأدب، تلتطفوا معه في الخطاب، لئلا يردهم، والمعنى:

فهل نجعل لك أجرًا عظيمًا على أن تجعل بيننا وبينهم سدًا يحول دون خروجهم لنا من شرهم؟

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

أي: قال إن الذي أعطاني الله من الأموال وما ملكني خير لي وأفضل من عطيتكم.

﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

أراد منهم أن يعاونوه بالعمل بأيديهم وبقوة أبدانهم، وهم أرادوا منه بناء سدٍّ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم من السدِّ، وهو الردم، فقد ينهار السدُّ بفعل الزلازل وغيرها، ولا يثبت إلا الردم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ

آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ

رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا. الآية/ ٩٦ - ٩٨

قال لهم ذو القرنين أعطوني زبر الحديد، جمع زبرة، والزبرة: القطعة من الحديد الضخمة، وإنما قصد

المناولة ولم يقصد العطية والهبة؛ لأنه قال لهم: ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا﴾.

في الكلام إيجاز بالحذف تقديره: فأتوه بما فجعلوا بعضها فوق بعض، ويني شيئاً فشيئاً حتى إذا

جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾، يعني بين

الجبلين، والصدف: الجبل المرتفع، ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾، قال ذو القرنين لهم: انفخوا يعني على النار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.



حتى إذا صار الحديد نارا، وذاب من شدة اشتعاله، قال: أعطوني نحاسا مُذابا أفرغه على الحديد المذاب، وأسند الإفراغ إلى نفسه لأنه هو الأمر به، وهم معه كالآلة.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾.

فما قدروا أن يعلوه بالصُّعود عليه لارتفاعه.

﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾.

لشدة صلابته وعظم ثخانتها، وقال في الموضع الأول: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾، وقال هنا: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾؛ لأن نقب ذلك البناء أشد من الصعود عليه، فناسب التعبير عنه بلفظ أشد وهو استطاعوا، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾.

قال هذا إشارة إلى الردم الذي بناه، ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، بالناس جميعا حيث حجب عنهم إفساد يأجوج ومأجوج.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾.

ثم قال: فإذا جاء وعدُ ربِّي الذي جعله موعدًا لخروج يأجوج ومأجوج من وراء هذا الرِّدم، ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾؛ هدم بناءه وسواه بالأرض، قال ابن دريد: دك الأرض يدكها دكا إذا سوى ارتفاعها وهبوطها للزرع أو غيره.<sup>١</sup>

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: فإذا جاء وعد ربِّي جعله دكاء قال: جعله طريقًا كما كان.<sup>٢</sup>

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

١ - جمهرة اللغة (١ / ١١٤)

٢ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره - رقم: ١٢٩٨٦

أي: وكان وعدُّ ربِّي الذي وعد خلقه في ذلك هذا الرِّدْمُ، وخروجهم على الناسِ حقًّا، فإن الله تعالى لا يخلف الميعاد.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾. الآية/ ٩٩، ١٠٠

يقول الله تعالى: وتركنا يأجوج ومأجوج عند ذلك السد وسقوطه يموج بعضهم في بعض حين يخرجون من وراء السد مزدحمين مختلطين لكثرتهم. يقال: ماج الماء يموج إذا اضطرب، وماج الناس إذا في دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾<sup>١</sup>.

عَنْ زَيْنَبَ بِنَةَ جَحْشٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَرِعَا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتُحِ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِيهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْحُبْتُ»<sup>٢</sup>.

وقيل: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، الجِنَّ وَالْإِنْسِ يموج بعضهم في بعض؛ عن ابن عباسٍ رضي الله عنه في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، قَالَ: الجِنَّ وَالْإِنْسِ يموج بعضهم في بعض<sup>٣</sup>.

وقال ابن زيد: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، هو أول يوم القيامة، وهذا الموج هو ازدحامهم واختصاصهم.

١ - سورة الأنبياء: الآية/ ٩٦

٢ - رواه البخاري - كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، حديث رقم: ٧١٣٥، ومسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة،

باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، حديث رقم: ٢٨٨٠

٣ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٢٩٩١



والراجح الأول وأن الضمير في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾، يرجع ليأجوج ومأجوج، وأن النفخ في الصور ذكر بعدها لقرب هذه العلامة من الساعة.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

أي: نفخة البعث بدليل قوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾، وإنما عبر عن الحشر بالماضي لتأكيد وقوعه، ذكر المصدر ﴿جَمْعًا﴾، لتأكيد أن البعث يعم الجميع؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾<sup>١</sup>.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ التَّقَمَ الْقَرْنُ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ» فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»<sup>٢</sup>.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

يقول تعالى: وأظهرنا لهم جهنم يوم القيامة، وأبرزناها حتى رأوها، وذكر المصدر وتنكيره ﴿عَرْضًا﴾؛ للتهويل من شأنه، وأنه فوق مدارك العباد.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾. الآية/ ٩٩ - ١٠٢

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾.

١ - سورة الكهف: الآية/ ٤٧

٢ - رواه الترمذي - أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في شأن الصور، حديث رقم: ٢٤٣١، بسند صحيح

الغطاء هو ما يغطي الشيء ويستتره، أي: الذين تعاملوا عن آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته، وتعاملوا عن آيات الله الشرعية فلم ينظروا فيها نظر معتبر ولا مدكر؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ﴾<sup>١</sup>.

روى ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾. قال: كانوا عمياً عن الحق فلا يبصرونه صمًا عنه فلا يسمعون<sup>٢</sup>.

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

أي: وكانوا لا يطيقون سماع ذكر الله تعالى إذ ذكروا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥]، وكان يوصي بعضهم بعضا بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾<sup>٣</sup>.

﴿أَفْحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾.

يقول الله تعالى: أفطن الذين كفروا حين عبدوا الملائكة والمسيح من دون الله أنهم بذلك يتخذونهم أولياء من دوني، ليس الأمر كما يزعمون بل سيكونون أعداء لهم ويتبرؤن منهم ومن عبادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾<sup>٤</sup>.

روى ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: أفحسب الذين كفروا إن يتخذوا عبادي من دوني أولياء قال: ظن كفره بني آدم إن يتخذوا الملائكة من دونه أولياء<sup>٥</sup>.

١ - سورة الأعراف: الآية/ ١٧٩

٢ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٢٩٩٤

٣ - سورة فصلت: الآية/ ٢٦

٤ - سورة مريم: الآية/ ٨١، ٨٢

٥ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٢٩٩٦



﴿إِنَّا أَعَدَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

إنا أعددنا جهنم لمن كفر بالله منزلاً، والكلام فيه تهكم بالكافرين؛ لأن الأصل أن يكون النزل لإكرام الضيف.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾. الآية/ ١٠٣ -

١٠٦

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين تقريعاً، وتنبها لهم على شدة غفلتهم، وسوء حالهم: هل نخبرك بأشد الناس خسراً في أعمالهم.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

الذين ضاع وبطل عملهم في الحياة الدنيا لكفرهم بالله تعالى، وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنكارهم للبعث والنشور، شبه اجتهادكم في الباطل بالسير في طريق غير موصلة.

روى البخاري عن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبِي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، هُمُ الْحُرُورِيُّ؟ قَالَ: لَا، هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، أَمَّا الْيَهُودُ: فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّا النَّصَارَى: كَفَرُوا بِالْحَيَّةِ وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحُرُورِيُّ: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ»<sup>١</sup>.

وعن أبي خميسة عبد الله بن قيس قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري<sup>٢</sup>.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

١ - رواه البخاري - كتاب التفسير، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، حديث رقم: ٤٧٢٨

٢ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٣٠٠٠

وهم يظنون أنهم على حق، وأن اجتهادهم في الباطل سيعود عليهم بالنفع.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

إشارة إلى الأخرسين أعمالاً الذين كفروا بآيات الله المنزلة على رسوله فلم يؤمنوا بها، وكفروا بقاء الله تعالى فلم يؤمنوا بالبعث والنشور، ولا بالحساب والجزاء، ولا بالجنة والنار، ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: خاب سعيهم وبطل اجتهادهم.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾.

لا يقيم الله تعالى لهم يوم القيامة وزناً لأن أعمالهم قد حبطت، وجعلها الله تعالى هباءً منثوراً، ولا وزن لصحائف أعمالهم، ولا وزن لهم لأنهم لا قيمة لهم لحستهم وهوأهم على الله تعالى، وإنما يوزن العباد يوم القيامة، وأعمالهم وصحف أعمالهم؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَرِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَقَالَ: اقْرَأُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾»<sup>١</sup>.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا﴾.

أي: ذلك الذي يعاملهم الله تعالى به من حبوط أعمالهم، وخسة قدرهم، ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا﴾، أي: بكفرهم بالله تعالى واتخاذهم آيات الله يعني القرآن، محلاً ومادةً للسخرية والاستهزاء.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. الآية/ ١٠٧ - ١١٠

١ - رواه البخاري - كتاب التفسير، باب: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الآية. حديث رقم:

٤٧٢٩، ومسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث رقم: ٢٧٨٥



مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى مآل الكافرين الذي ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ذكر هنا مآل المؤمنين الطائعين، وما أعده لهم من الدرجات العلى والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

يقول الله تعالى: إن الذين آمنوا بالله رباً وآمنوا بملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وعملوا بطاعته، كانت لهم جنات الفردوس منزلاً يوم القيامة.

وجنات الفردوس هي أعلى الجنات، وأفضل الجنات؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»<sup>١</sup>.

وَعَنْ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْفِرْدَوْسُ رُبُوعُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا وَأَوْسَطُهَا، وَمِنْهَا تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»<sup>٢</sup>.

أصل النزول: المكان المعد للضيافة، وما يهيأ للضيف إذا نزل.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

أي: مقيمين فيها إقامة دائمة لا تنقطع، ولا يريدون الانتقال منها رغبة عنها وزهداً فيها، والتحول الانتقال من موضع إلى موضع.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. الآية/ ١٠٧ - ١١٠.

١ - رواه البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث رقم: ٢٧٩٠

٢ - رواه الطبراني في الكبير - حديث رقم: ٦٨٨٦، بسند صحيح

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لو كان البحر مدادًا وهو الخبر الذي يوضع في الأقلام ليُكتب به، فكتبت به كلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثل هذا البحر مددًا أي: زيادة عليه، وفيه دليل على أن كلام الله تعالى لا ينتهي لها لأنه صفة من صفاته تعالى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>١</sup>.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

يقول الله تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أنا إلا إنسان مثلكم من بني آدم، وإن الله يوحى إليّ أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، معبود واحد لا شريك له، وقد أوحى إليّ أن أنذركم عذابه إن عبدتم غيره، أو أشركتم به؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾<sup>٢</sup>.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

فمن كان يرجو ثواب ربه على إيمانه به وطاعته، ويخاف عقاب ربه يوم لقائه، فليعمل عملاً صالحًا يرجو به ثواب ربه وينجو به من عقابه، ولا يشرك بربه تعالى أحدًا لا في قول ولا في فعل ولا في عبادة، ومن الشرك الرياء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ».<sup>٣</sup> رواه مسلم  
قال سعيد بن جبیر: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. قال: لا يرأى بعبادة ربه أحدًا.

آخر تفسير سورة الكهف والله الحمد والمنة.

١ - سورة لقمان: الآية/ ٢٧

٢ - سورة ص: الآية/ ٧٠

٣ - رواه مسلم - كتاب الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم: ٢٩٨٥



## تفسير سورة مريم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَهَيْعِص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا﴾. الآية / ١، ٢

سورة مريم مكية.

سميت بسورة مريم لذكر قصة مريم عليها السلام فيها.

## بين يدي السورة:

افتتح الله تعالى سورة مريم بالحروف المقطعة، ثم قصة زكريا عليه السلام، ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا (٢)﴾. وتلك الآية الباهرة التي تجلت بها قدرة الله تعالى، حيث وهب لزكريا عليه السلام يحيى على كبر سنه وعقم امرأته، وما صاحب تلك البشرى من انعقاد لسانه عليه السلام إلا من ذكر الله تعالى ثلاث ليالٍ كاملة، ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)﴾.

ثم عطف عليها قصة مريم عليها السلام، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾. وفيها من دلائل قدرة الله تعالى ما يدهش الألباب، ويذهل العقول، وقد بشرها الملك بغيام زكيٍّ، على اعتزالها أهلها واحتجابها منهم، وانشغالها بعبادة الله تعالى، ولما تعجبت من تلك البشرى وهي لم يمسهها بشر، بين لها الملك أن الله تعالى أراد أن يجعل ابنها آية للناس دالة على قدرة الله تعالى، فحملت به فزادت من عزلتها عن أهلها، وازدادت به بعداً عنهم حياءً أن يرى عليها شيء من آثار الحمل، وبلغ الحزن مبلغاً عظيماً وهي الطاهرة والمطهرة، حتى تمت الموت، حتى وضعت حملها بعيداً عن أهلها، وقد أمرها الله تعالى ألا تتكلم إذا رأت أحداً من الناس، ثم أتت به قومها تحمله، ووقع ما كانت تحذر من اللوم والتهمة من قومها: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًّا﴾، ولأنها أمرت ألا تتكلم أشارت إليه، فزاد إنكارهم عليها ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، وهنا تجلت آية أخرى من آيات الله تعالى في ولادة المسيح من غير أب، وتكلم بلسان فصيح؛ معلنا عبوديته لله تعالى، ومتحدثاً عن

إرسال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، ومظهرًا لبراءة أمه مما رموها به من البهتان. ثم أخبر الله تعالى عن ضلال أولئك الذين عبدوا عيسى من دون الله تعالى، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وتوعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم يوم القيامة على كفرهم به وضلالهم، ونسبتهم له تعالى الصاحبة والولد؛ فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم عطف الله تعالى على قصة مريم عليها السلام قصة إبراهيم عليه السلام؛ فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾، وذكر الله تعالى محاورته لأبيه ودعوته لتوحيد الله تعالى ونبد الشرك بالله تعالى، مع المبالغة في التلطف معه ومع ذلك ما ازداد أبوه إلا إعراضًا ونفورًا حتى قال له: ﴿لَعْنٌ لِمُ تَنَتَّهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، فاعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه وما يعبدون من دون الله وأعلن براءته منهم بقوله: ﴿وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

ثم ذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام، ثم ذكر قصة إسماعيل عليه السلام، ثم ذكر قصة إدريس عليه السلام، وأثنى عليهم بما حباهم به من الفضل بالنبوة والرسالة، وذكر كل واحد منهم بصفة من أخص صفاته، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ.....﴾.

ثم بين تعالى حال الناس بعدهم فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾، ولما ذكر حال الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وما توعدهم الله تعالى به من العذاب الأليم، ذكر حال المؤمنين المتقين وما أعدده الله تعالى لهم من النعيم المقيم في الجنة.

ثم ذكر الله تعالى البعث بعد الموت وإنكار المشركين له بقوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، ثم رد الله تعالى عليهم زعمهم بدليل عقلي وهو أنه تعالى ابتداء خلق الإنسان من العدم، ثم أقسم الله تعالى على بعثهم هم والشياطين يوم القيامة حول جهنم، ثم ذكر شيئًا من أهوال ذلك اليوم، متوعدًا العتاة الجبارين، والطغاة والمجرمين، بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّكَ وَالشَّيَاطِينَ تُمُتُّنَّ﴾.



لنَحْضِرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ حَتَّىٰ ﴿﴾، ثم ذكر الله تعالى أن من أولئك العتاة المتجبرين هذا الذي قال وهو مقيم على كفره: لئن كان هناك بعث لأوتين مالا وولدا كما أوتيت المال والولد في الدنيا: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، ثم توعده الله تعالى وتوعد كل كافر بالحشر والوقوف بين يديه يوم القيامة للحساب.

ثم ذكر الله تعالى أن من جملة الكفار أولئك الذين نسبوا لله تعالى الولد وهم اليهود والنصارى، وأنهم ارتكبوا جرماً عظيماً وأتوا ذنباً شنيعاً، لا تتحملة الأرض ولا الجبال الرواسي، ولا السماوات على عظمتها.

ثم ذكر الله تعالى المؤمنين المتقين وما لهم عند الله تعالى من المحبة والإكرام، وحسن العاقبة في جنات الخلد وطيب المقام.

ثم ذكر الله تعالى الأمم الغابرة، على كثرتهم، وكيف أهلكهم الله تعالى بكفرهم، وتكذيبهم لرسولهم، حتى لم تبق لهم عين تطرف، ولا يسمع لهم صوت ولو كان خفياً.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَهَيْعِص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً (٢) إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَمَا أَكُنُّ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾. الآية / ١ - ٤

تقدم الكلام عن الحروف في المقطعة في سورة البقرة.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا، وقيل: تقديره: فيما يتلى عليك، ذكر رحمة ربك عبده زكريا.

والمعنى: هذا بيان ذكر رحمة الله زكريا، وقيل: في الآية تقديم وتأخير؛ تقديره: هذا ذكر ربك عبده زكريا بالرحمة.

﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾.

هذا تفسير لما أجمل في الآية السابقة، أي: حين ناجى ربه ودعاه دعاءً خفياً، والنداء قد يُستعمل في مطلق الخطاب؛ كما في قوله: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ [مريم: ٢٤]، وهو أبلغ في التضرع، وأرجى للإجابة؛ لأنه من الآداب التي أمر الله تعالى بها؛ كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وكان ذلك في الصلاة كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾<sup>١</sup>.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾.

هذا تفسير للدعاء الذي دعا به زكريا عليه السلام، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، الوهن: الضعف، وتخصيص العظم بالذكر لأنه أصلب شيء في البدن، فإذا أصابه الوهن فما سواه أشد وهناً، وهو أظهر أسباب الحاجة إلى الولد.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

أي: وانتشر الشيب في الرأس، انتشار النار في الهشيم، شبه انتشار النار في الشعر وفشوّه فيه باشتعال النار في الهشيم، في سرعة التهابه وتعذر تلافيه.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

ولم تخيبي يوماً في كل دعاء دعوتك به، ولم تكن تُشقيني برّد دعائي إذا دعوتك، بل عودتني الإجابة في كل ما دعوتك به.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. الآية/ ٥، ٦

يقول زكريا عليه السلام: وإني خفت الموالي يعني: الذين يلوني في النسب، وهم العصبة وبنو العم، والمولى: ابن العم والعصبة، ﴿مِنْ وَرَائِي﴾، أي: من بعد موتي.

١ - سورة آل عمران: الآية/ ٣٩



يقول عليه السلام: إني خِفْتُ عَصْبَتِي وبنوا عمي ألا يقوموا مقامي في الدين بعد موتي.

﴿وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾.

أي: وكانت امرأتي عقيمًا لا تلد.

﴿فَهَبَ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾.

أي: فهب لي ابنًا يلي أمر الدين ويقوم به من بعدي، والمراد بالولي هنا الابن وليس المراد أحد قرابته كما ذكر ذلك من ذكره من المفسرين، بدليل قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، والذرية النسل والأولاد، وذكر الهبة لأن الأسباب منقطعة، وهي: كون امرأته عاقراً، مع كبر سنه.

﴿يَرِثُنِي﴾.

أي: هب لي ولدًا يرث علمي، ولم يسأل ولدًا يرث ماله، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما؛ فعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً»<sup>١</sup>. وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»<sup>٢</sup>.

وأما رواه ابن جرير أن قتادة قال: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَتَى عَلَى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾. قال: "رحم الله زكريا ما كان عليه من ورثته". فلا يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾.

١ - رواه البخاري - كتاب الفرائض، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا نورث ما تركنا صدقة، حديث رقم: ٦٧٢٧، ومسلم - كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا نورث ما تركنا فهو صدقة، حديث رقم: ١٧٥٩  
٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢١٧١٥، أبو داود - كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم: ٣٦٤١، والترمذي - حديث رقم: ، وابن ماجه - المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم: ٢٢٣، بسند صحيح

ويرث من آل يعقوب النبوة، ومعنى وراثته النبوة أن يصلح لأن يوحى إليه.

﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

أي: واجعله يارب مرضياً مرضياً، ويرضاه عبداً.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾. الآية / ٧ - ٩

لما دعا زكريا ربه أن يهب له ولياً يرث علمه ويرث من آل يعقوب النبوة بشره الله تعالى بغلام اسمه يحيى، وقد تفصيل ما أجمل هنا في سورة آل عمران؛ قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: ٣٩]، فإن الذي هيج زكريا عليه السلام على الدعاء بطلب الولد هو ما رآه عند مريم عليها السلام من الرزق في غير أوانه، فلما قال لها: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، دعاه ذلك لسؤال الولد، فأنته الملائكة بالبشرى وهو في الصلاة، وأن الذي سماه هو الله تعالى.

﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

أي: لم يُسم بهذا الاسم أحد قبله؛ قال ابن عباس: لم يسم أحد يحيى قبله.<sup>١</sup>

وقيل: لم يجعل الله تعالى له مثيلاً وشبيهاً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي: شبيهاً.

قيل: ولم يكن ليحيى شبيهاً من حيث أنه لم يعص، ولم يهجم بمعضية قط، وأنه ولد بين شيخ وعجوز كانت عاقراً من أول عمرها، وأنه كان حصوراً؛ فعن مجاهد في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾. قال: مثلاً.<sup>٢</sup>

١ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٣٠٤٣

٢ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٣٠٤٥



وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾. قال: شبيهاً<sup>١</sup>.

﴿قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

لما بشره الله تعالى بيحيى قال متعجباً من انقطاع الأسباب: ﴿رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾. أي: كيف يكون لي غلام، وامرأتى عاقراً لا تحبل، ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾. كناية عن عدم القدرة على الجماع، والعتو: اليبس والجفاف، والعرب تقول للعود إذا يبس: عَتَا يَعْتُو عَتِيًّا وَعُتُوًّا، قال ابن قتيبة: ﴿عِتِيًّا﴾ هو أي: يسناً؛ ومنه يقال: ملك عَاتٍ إذا كان قاسي القلب غير لين.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

أي: قال الملك: الأمر كما قيل لك، ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: أمر خلق يحيى منك على كبر سنك، ومن امرأتك مع كونها عاقراً أمرٌ يسير على الله تعالى، ودليله أني خلقتك من قبل من العدم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرِكَاهًا وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. الآية/ ١٠ - ١٥

قال زكريا عليه السلام: ربِّ اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرتني به الملائكة؛ ليطمئن قلبي وتستقر نفسي.

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

قال: علامة تحقق تلك البشرية أنك لا تقدر على تكليم الناس ثلاث ليالٍ، مع كونك صحيحاً سليماً من غير خرس، ولا آفة، مع انطلاق لسانه بذكر الله تعالى.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

١ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٣٠٤٦

سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عَلَامِ الْغُيُوبِ

يقول الله تعالى: فخرج زكريا حين أخبره الله تعالى بتلك الآية التي وعده الله بها فخرج على الناس من مصلاه، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾، أي: فأشار إليهم حين حبس لسانه عن الكلام أن سبحوا الله تعالى بكرة وعشيًا، قاله ابن عباس، وعنه: كتب لهم<sup>١</sup>.

و(أَنَّ) هنا تفسيرية، أي: أشار إليهم إشارةً تفسيرها: سبحوا الله أول النهار وآخره.

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: فوهبنا له يحيى وقلنا له في صباه: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، والمراد بالكتاب هنا: التوراة، فهي التي كان يحكم بها النبيون ويتدارسونها بينهم، وقيل: آتاه الله كتابًا خاصًا به، وقوله خذ الكتاب بقوة؛ أي: بجد واجتهاد.

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وأتيناه الفهم في كتاب الله صغيرًا في حال صباه.

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾.

وأتيناه من عندنا رحمةً وشفقةً على الناس خصصناه، وإنما قال: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ مع أَنَّ الْكُلَّ من عند الله تعالى، للدلالة على أَنَّ شفقته عليه السلام كانت زائدة على ما في جِبَلَّةِ الناس.

﴿وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

وطهارةً من المعاصي، وكان مستمرًا على طاعة ربه، مجتنبًا للذنوب والمعاصي.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبْرًا عَصِيًّا﴾.

أي: وكان محسنًا إلى والديه غاية الإحسان، ولم يكن متسلطًا ولا متكبرًا على والديه ولا عاقًا مخالفًا لهما.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

١ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٣٠٥٥



وتحيّة من الله تعالى عليه ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، وأتى بصيغة الماضي في مولده: ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾، وبصيغة المضارع في الموت والبعث في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾؛ لأن مساق الكلام بعد ولادته وقبل موته.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. الآية/ ١٤ - ١٧

أي: وكان محسنًا إلى والديه غاية الإحسان، ولم يكن متسلطًا ولا متكبرًا على والديه ولا عاقًا مخالفًا لهما.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وتحيّة من الله تعالى عليه ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، وأتى بصيغة الماضي في مولده: ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾، وبصيغة المضارع في الموت والبعث في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾؛ لأن مساق الكلام بعد ولادته وقبل موته.

﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾.

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما كان زكريا عليه السلام هو الذي كفل مريم، وكان سؤال زكريا الولد بسبب ما رآه عندها من الرزق في غير أوانه، فلما قال لها: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فكان ذلك سببا في دعائه واستجابة الله تعالى له، قرن بين القصتين هنا وفي سورة آل عمران، وسورة الأنبياء.

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر في الكتاب يعني القرآن مريم فإن في قصتها من دلائل قدرة الله تعالى، ووحدانيته ما ينبغي على العباد الاهتمام به، والوقوف عليه، واعتقاده دينًا يدينون الله تعالى به.

﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

إذ تنحت من أهلها الذين كانوا معها في الدار، مكاناً في الدار إلى جهة المشرق، لتخلو فيه لعبادة ربها، لذلك اتخذ النصراني المشرق قبلةً، وأصل النبذ: الرمي والطرح، يقال: انتبذ فلان ناحية أي: تنحى ناحية، وعدي الفعل: (انتبذ) لتضمنه معنى الإتيان، وتقدير الكلام: انتبذت من أهلها فأتت مكاناً شرقياً.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾.

فاتخذت من دون أهلها حجاباً مبالغاً في الستر والاعتزال، وذكر الحجاب دليل على أن انتبازها من أهلها كان في الدار.

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

أي: فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام، فتمثل لها جبريل عليه السلام في صورة إنسان تام معتدل الخلق، حسن الصورة، وإنما تمثل لها في صورة بشر؛ لأنها لا تحتمل رؤيته في صورته الملائكية.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾. الآية/ ١٨ - ٢١

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

لما رأت رجلاً دخل عليها فجأة في الخلوة، خافت منه وظننت أنه يريد بها بسوء، وعلمت أنها لا تقدر على دفعه فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، أي: إن كنت تخشى الله تعالى، وتتقي سخطه، وجواب الشرط محذوف تقديره: فلا تتعرض لي.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.



قال لها جبريل عليه السلام: إنما أنا رسول ربك الذي استعدت به، ولست ممن يُتوقع منه ما توهمت من الشر، أرسلني إليك وأمرني أن أهب لك ولدًا صالحًا طاهرًا من الذنوب والآثام.

قرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب: ﴿لِيَهَبَ لَكَ﴾؛ أي: ليهب الله لك، وقرأ الباقون: ﴿لَأَهَبَ لَكَ﴾، يعني بأمر الله تعالى.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

قالت مريم: كيف يكون لي غلام ولم يقربني زوج، ولم أك فاجرةً، والولد لا يكون إلا من نكاح، أو سفاح، ولم يحدث لي شيء من ذلك.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

قال جبريل عليه السلام: الأمر كما قيل لك، ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: أمر خلق ولد بلا أب يسير على الله تعالى.

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

أي: ولنجعل خلقه من غير أب برهانًا قاطعًا ودليلاً ساطعًا للناس على قدرة الله تعالى، التي لا حد لها، حيث خلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾، أي: ولنجعله رحمة من الله بجعله نبياً من الأنبياء يدعو إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. وكان أمر خلقه كذلك محتوماً قدره الله وكتبه حين كتب مقادير الخلائق.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزَبِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. الآية/ ٢٢ - ٢٦

سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابَ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عَلَامِ الْغُيُوبِ

الفاء للترتيب والتعقيب، لما قال لها جبريل عليه السلام: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾، نفخ في جيب درعها؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، فحملت مريم بعمسى في الحال، ﴿فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾، فتنحت به مكاناً بعيداً عن الناس، خوفاً من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

أي: فجاء بها المخاض، أي: ألجأها المخاض إلى جذع النخلة، يقال: ما أجاءك إلى كذا؟ أي: ما اضطرك إليه قال زهير:

وجارٍ سارٍ مُعْتَمِداً إِلَيْكُمْ \*\*\*\*\* أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ

أي: ألجأته المخافة.

والمخاض: وجع الولادة، وهو الطلق، والجذع: ساق النخلة، كأنها أرادت أن تستند إلى شيء وتعلق به عند الولادة لشدة وجع الطلق ولعدم من يعينها.

اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فقال ابن عباس وسئل عن حبل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت.

ودليل ابن عباس ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ...؛ فإن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب.

وقال عكرمة: ثمانية أشهر قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر.

وقيل: ستة أشهر، وقال جمهور المفسرين أنها حملت به تسعة أشهر، وهو الصحيح.

وأجاب الجمهور عما استدل به ابن عباس بأن الفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، وين إنزال المطر واخضرار الأرض بالنبات مدة.



وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]؛ فالفاء هنا للتعقيب مع أن بين كل صفتين أربعين يوماً، فتعقيب كل شيء بحسبه.

﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾.

تمت الموت لما ضَرَبَهَا الطُّلُقُ من شدة حياتها من قومها، ومخافة لومهم، وفي الآية دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود وأنها ستُرمي بالفاحشة، وهي الطاهرة المطهرة.

تقول: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، وكنت كالشيء الحقيير الذي رمي وترك حتى نُسي، والنسي: هو الشيء المتروك الذي لا يُذكر كأنه منسيٌّ، قال قتادة: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾؛ أي: شيئاً لا يعرف، ولا يذكر، ولا يُدرى من أنا.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

قرأ أبو جعفر ونافع، وحفص عن عاصم، وحمزة والكسائي وخلف: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾، بكسر ميم من على أنه حرف جر، وكسر تاء (تَحْتِهَا). وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب ﴿مَنْ تَحْتِهَا﴾ بفتح الميم والتاء.

واختلف المفسرون في المراد بذلك على قولين:

الأول: قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقتادة، قالوا: المراد به جبريل عليه السلام، ناداه من أسفل الوادي، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها.

الثاني: قول مجاهد والحسن وابن زيد قالوا: المراد به عيسى ابن مريم، واختاره ابن جري الطبري.

والمعنى: ناداه قائلاً لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، أي: جدولاً من ماءٍ.

قال البراء بن عازب: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا﴾، قال: الجدول. وعن ابن عباس قال: السري: النهر.

وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز.

وسمي النهر سريًّا؛ لأن الماء يسري فيه.

﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾.

الهز: تحريك يجذب ودفع، وعدي ﴿هَزِي﴾ ب (إلى) لتضمُّنه معنى الجذب، أي: وهزي جاذبة إليك بجذع النخلة، والباء في ﴿بِجَذَعِ﴾، للإلصاق، كما في قوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، تسقط عليك النخلة ﴿رُطْبًا﴾؛ أي: طريًّا ﴿جَنِيًّا﴾، الجني ما طاب وصلح للاجتماع؛ أي: القطف.

قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

أي: فكلي من الرُّطْبِ الجني، ﴿وَاشْرَبِي﴾ من ماء السري، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾؛ أي: وطبي نفسيًا وافرحي بمولودك ولا تحزني.

وقرة العين مشتقة من القرار، فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره أو من القر وهو البرد، فإن دمة السرور باردة، ودمة الحزن حارة.

ومعنى الكلام: ولتقرر عينك بولدك، ثم حول الفعل عن العين إلى المرأة صاحبة العين، فإذا حول الفعل عن صاحبه إلى ما قبله نُصب صاحب الفعل على التفسير، ومثله: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ

مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]، وإنما هو: فإن طابت أنفسهن لكم. وقوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾<sup>١</sup>.

﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.



أي: مهما رأيت من أحد، فسألك عن الولد أو لامك عليه، ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ أي صممتاً، وإمسأكا عن الكلام، وكان الصوم عن الكلام من شرع من قبلنا، ونهي عنه في شرعنا؛ فعن عليّ بن أبي طالب قال: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا يُتَمَّ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ»<sup>١</sup>.

وقيل: أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقد تُسمى الإشارة كلاماً وقولاً، قال الفراء العربُ تسمي كلَّ ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريقٍ وصل ما لم يؤكّد بالمصدر فإذا أُكِّد لم يكن إلا حقيقةً الكلام.

وقيل: أذن لها في الكلام بهذا القدر.

﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

أي: فلن أكلم اليوم آدمياً، وإنما أمرت بذلك لكرهة مجادلة السفهاء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أمرت بالصمت؛ لأنها لم يكن لها حجة عند الناس في شأن ولدها، فأمرت بالكف عن الكلام يكفيها ولدها الكلام بما يبرئ ساحتها.

١ - رواه أبو داود - كتاب الوصايا، باب ما جاء متى ينقطع اليتيم، حديث رقم: ٢٨٧٣، بسند صحيح

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَمَ يَجْعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. الآية/ ٢٧ - ٣٣

يقول الله تعالى: فأنت مريم بعيسى عليه السلام قومها وهي تحمله، وقد اطمأن قلبها وذهب عنها روعها، بعد كلام عيسى لها، فلما رأوها تحمله ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، أي: جئت شيئاً عظيماً، ومنكرًا شنيعاً، والفرِّي: الأمر العظيم، قال مجاهد: عظيماً منكرًا.

وقيل للزنا فرِّي لأن ولد الزنى كالشيء المفترى المختلق؛ لأن الزانية تدعي إلحاقه بمن ليس أباه.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾.

كان لمريم أخ يقال له: هارون وكان من أفضل بني إسرائيل، خاطبها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ، أي ما كان لأخت مثله أن تفعل فعلتك، ودل على هذا ما رواه مسلم عن المغيرة بن شعبه قال: «لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا. فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْمُونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ»<sup>١</sup>.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾، يعني ما كان أبوك زانياً وما كانت أمك زانية، وكلامهم هذا تعريض برميتها بالزنا، وهو قذف لها بالزنا، ومما يدل على أنه قذف لها بالزنا، قول الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، ومما يدل على أن التعريض بالزنا قذف ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، والدارقطني عن أبي الرجال، عن أمه عمرة قالت:

١ - رواه مسلم - كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، حديث رقم: ٢١٣٥



اسْتَبَّ رَجُلَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَا أُمِّي بَزَائِيَّةٌ وَلَا أَبِي بَزَانٍ ، فَشَاوَرَ عُمَرَ الْقَوْمِ ، فَقَالُوا: «مَدَحَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ» ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ لهُمَا مِنَ الْمَدْحِ غَيْرُ هَذَا»، فَضَرَبَهُ.<sup>١</sup>

وعن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: إِنَّ رَجُلًا فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ لِرَجُلٍ: مَا أُمِّي بَزَائِيَّةٌ، وَلَا أَبِي بَزَانٍ، قَالَ عُمَرُ: مَاذَا تَرَوْنَ؟ قَالُوا: رَجُلٌ مَدَحَ نَفْسَهُ، قَالَ: بَلْ هُوَ، انظُرُوا، فَإِنْ كَانَ بِالْآخِرِ بَأْسٌ فَقَدْ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ بَأْسٌ، فَلِمَ قَالَهَا؟ فَوَاللَّهِ لَأُحَدِّثَنَّ، فَحَدَّثَهُ.<sup>٢</sup>

قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾.

أي: أشارت إلى عيسى عليه السلام؛ أي: كَلِّمُوهُ لِيَجِيْبَكُمْ.

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

استفهام الغرض منه الإنكار، أنكروا أن يكلموا من ليس من شأنه أن يتكلم، وظنوا أنها تستخف بهم ولا تبالي بما فعلت، ومعنى قولهم: ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، أنه كان من أهل المهد وإن لم يكن في تلك الحالة في المهد، كما يقال: صبي يرتضع، وإن كان لا يرتضع حالة الإخبار عنه.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

قال عيسى عليه السلام: إني عبد الله تنزيهاً لله تعالى عن اتخاذ الولد، وأجرى الله تعالى ذلك لسان عيسى لأنه تعالى علم أن قوماً سيقولون: أنه ابن الله.

والعجيب أن كلام عيسى عليه السلام في المهد مع كونه من أظهر المعجزات، إلا أنه ليس له ذكر عند النصارى؛ لأنه يهدم عقديّة التثليث ويقتلعها من جذورها، ومثل هذا الكلام يتناقله الناس جيلاً بعد جيل، ويهتموا به غاية الاهتمام، فلما أهمل قصداً، دل ذلك على أنهم أرادوا أن ينشروا عقدة

١ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه - كتاب الحدود، من كان يرى في التعريض عقوبة، حديث رقم: ٣٠٢٦٤، والدارقطني - كتاب

الحدود والديات وغيره، حديث رقم: ٣٤٧٩

٢ - رواه عبد الرزاق في مصنفه - كتاب الطلاق، باب التعريض، حديث رقم: ١٤٦٥٤

الثليث وألوهية المسيح، لأنه لو قيل تكلم في المهد لكان المتبادرُ إلى الذهن أن يقول السامع: ماذا قال؟

فإذا قيل: قال إني عبد الله. بطل الثليث، وبطل ادعاؤهم ألوهيته.

﴿آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

يعني: الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، باعتبار ما سيكون، فجعل الآتي لا محالة كأنه وجد.

وقيل: معناه: أن ذلك سَبَقَ في قضائه. قال عكرمة: قضى أن يؤتيني الكتاب فيما قضى.<sup>١</sup>

أي: وجعلني الله تعالى ممن اختارهم للدعوة إلى توحيدته تعالى، وتبليغ دينه للناس، وكان عيسى عليه

السلام نبياً رسولاً، بدليل قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.<sup>٢</sup>

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾.

أي: وجعلني كثير الخير، نفاعاً لمن آمن بي واتبعني أينما حللت؛ لأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويرشد ويهدي، وقيل: المعلم للخير، وقيل: الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر.

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

أي: وأمرني بالصلاة والزكاة مدة حياتي، وذكر الأمر هنا بلفظ الوصية؛ لمزيد العناية والاهتمام بهما.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

وجعلني باراً بوالدي، مطيعاً لها، ولم يجعلني متسلطاً عصياً.

قال أبو رجاء الهروي: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، وتلا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقيماً، وتلا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ

وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.<sup>٣</sup>

١ - تفسير الطبري (١٥ / ٥٢٩)

٢ - سورة آل عمران: الآية / ٤٩



﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

يخبر أن الله تعالى قد آمنه وسلمه من الشيطان يوم ولد، ويوم يموت؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمْسُهُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَأُوا إِنَّ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾»<sup>١</sup>.

وأمنه من الفزع يوم البعث وسلمه من سائر الآفات، وفيه إثبات لعبوديته لله تعالى، لأنه يولد ويموت ويبعث كسائر العباد.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلْدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾. الآية / ٣٤ - ٤٠.

أي: ذلك الذي تقدمت قصته، وتقدمت صفاته عيسى بن مريم، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾، أي: قصصت عليكم هو قول الله تعالى، وقوله تعالى حق لا مربة فيه، فيكون المراد بالحق هنا الله تعالى، لا ما قاله اليهود الذين قالوا عنه: ابن زنا وقالوا عنه: ساحر كذاب، ولا قول النصارى، الذين قالوا عنه: ابن الله.

ويحتمل أن يكون المراد: ذلك عيسى ابن مريم قال قول الحق، يعني قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ونصب (قول) على المصدر، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ الصِّدْقِ﴾ [الأحقاف: ١٦]، ويحتمل أن يكون في الكلام إضمارًا، تقديره: ذلك نبا عيسى، ذلك النبا قول الحق.

٣ - تطريز رياض الصالحين (ص: ٧٤٥)

١ - رواه البخاري - كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، حديث رقم: ٤٥٤٨، ومسلم - كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، حديث رقم: ٢٣٦٦

﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

الذي يشكون ويختلفون فيه ويقولون غير الحق، اختلف فيه اليهود والنصارى، واختلف فيه النصارى على طوائف كثيرة أشهرها ثلاث فرق: النسطورية يقولون: عيسى ابن الله، واليعقوبية يقولون: عيسى هو الله، والملكانية وهم الكاثوليك يقولون: الله ثالث ثلاثة، الأب، والابن عيسى، والروح القدس.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾.

يقول الله تعالى: ما ينبغي لله أن يتخذ من ولدٍ، الله تعالى أجلُّ من ذلك، وقوله: ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾. لتأكيد النفي، وتدلل كذلك على نفي الواحد والجماعة، وفي الكلام تكذيب لما يزعمه النصارى، من بنوة عيسى، وما يفتره اليهود من بنوة العزيز، وما يدعيه المشركون الوثنيون من زعمهم أن الملائكة بنات الله، سب صريح لله تعالى، وكذب وافتراء عليه تعالى؛ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قَالَ اللَّهُ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَنْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَمَنْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَزَعَمَ أَيُّ لَّا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدًا، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»<sup>١</sup>.

﴿سُبْحَانَهُ﴾.

تنزيها لله تعالى عن كل نقص، وعمما يقوله المشركون من نسبة صاحبة الولد، وعمما لا يليق بكماله تعالى.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: إذا أراد أن يقضي أمراً فإنما يقوله له كن فيكون كما أراد الله تعالى، وفيه تبكيت للنصارى بعد تكذيبهم، بأنَّ مَنْ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَوْجَدَهُ بـ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، منزّه عن مشابهة الخلق، والحاجة إلى اتخاذ الولد بإحبال الإناث. وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا

١ - رواه البخاري - كتاب التفسير، باب ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾، حديث رقم: ٤٤٨٢



أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴿الآية [المائدة: ٦]، أي إذا أردتم القيام إليها، ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

هذا من تمام كلام عيسى عليه السلام، وفيه تأكيد لوحداية الله تعالى، وإعلان العبودية لله وحده، وأن هذا هو الطريق القيم، الموصل إلى رضاه وإلى جنته.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾.

الحزب عبارة عن الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها، وسمي اليهود والنصارى أحزاباً لأنهم تحزبوا وانقسموا في شأن عيسى عليه السلام إلى فرق شتى، يقول الله تعالى: فاختلف أهل الكتاب فيما بينهم في شأن عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى فرق شتى فقالت اليهود: هو ولد زنية، وكلامه الذي تكلم به سحر. واختلف النصارى فيه اختلافاً كبيراً حتى عقدوا عشرة مجامع في أزمان متفاوتة اجتمع في هذه المجامع زهاء أربعة عشر ألفاً من الأساقفة والبطاركة والرهبان، كلهم يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، فمنهم من قال المسيح هو الله، وقال آخرون: هو ابن الله، وقال آخرون: الله ثالث ثلاثة. وقال آخرون: المسيح عبد الله ورسوله.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

توعد الله الذين كفروا من المختلفين في شأن عيسى عليهم بالويل يوم القيامة، وقيل له: مشهد لأنه يشهد الخلائق جميعاً.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

يخبر الله تعالى عن حال أولئك الأحزاب يوم القيامة، وهو حال يتعجب منه لأنه مناقض لما كان عليه في الدنيا؛ كانوا في الدنيا صمّاً عن استماع الحق وعمياً عن رؤية الحق، أما يوم يأتوننا يعني يوم القيامة فما أشدَّ سمعهم وما أنفدَّ بصرهم حين لا ينفعهم السمع والبصر.

١ - سورة النحل: الآية/ ٩٨

قال قتادة: ذلك والله يوم القيامة سمعوا حين لم ينفعهم السمع وأبصروا حين لم ينفعهم البصر.

﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

لكنهم اليوم في الدنيا ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى، حين زعموا أن عيسى هو الله أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، فضلوا عن الحق ضلالاً ظاهراً، لا يخفى على من عنده عقل، ووضع الظاهر موضع المضمحل لبيان أن ظلمهم بعبادة غير الله تعالى هو علة ضلالهم عن الحق.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الخطاب لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى له وأنذر الناس يا محمد يوم الحسرة، أي يوم القيامة وقيل له يوم الحسرة؛ لأنه ما من أحد أساء في الدنيا إلا ندم فيه ألا يكون قد نزع أقلع عن إساءته، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾؛ أي: فرغ من الحساب، وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وإلى النار إلى النار.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهم في غفلة في الدنيا عما سيحدث لهم يوم القيامة، وهم لا يصدقون به ولا يعتقدون وقوعه.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾.

تقديم الضمير للاختصاص، وضمير الجمع للتعظيم، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾، فلا ندع عليها من الخلق أحداً، وتفرد بالملك والبقاء، ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾، ونرث من عليها فنسلبهم جميع ما في أيديهم، ﴿وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾، وليس إلى غيرنا مرجعهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾. الآية/ ٤١ - ٤٥



## مناسبة الآيات لما قبلها:

لما بين الله تعالى في الآيات السابقة بطلان عقيدة اليهود والنصارى في عيسى بن مريم عليه السلام، بين الله تعالى هنا بطلان انتسابهم لإبراهيم عليه السلام، وبيان أنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً، وفيها ردُّ على المشركين الوثنيين الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام.

يقول الله تعالى: واذكر يا محمد فيما أوحى إليك من القرآن للناس واتل عليهم ما أنزل الله تعالى في شأن إبراهيم وإنه كان نبياً أوحى الله تعالى وأمره أن يدعو الناس لتوحيد الله تعالى ملازماً للصدق في كل أحواله كثير التصديق؛ لكثرة ما صدق به من أمور الغيب.

﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾.

حين قال لأبيه آزر ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، ومثل هذا وثن لا يسمع دعاء من دعاء، ولا يرى من يعبد، ولا ينفع ولا يضر.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾.

قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي...﴾، خطاب له بالبر والاستعطاف على كفره بالله تعالى، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ أي: قد أتاني من العلم بوحدانية الله تعالى، وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ما لم يبلغك ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، فأطعني واقتد بي في توحيد الله تعالى وعبادته، أرشد إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا تضل إن لزمته.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾.

كان أبوه يعبد الأوثان، والأوثان تسكنها الشياطين، فالذي يعبد الأوثان يعبد الشياطين حقيقة، ويحتمل أن يكون أراد بعبادة الشيطان طاعته في عبادة الأوثان والكفر بالله تعالى.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾.

العصي: هو ذو العصيان، أي: إن الشيطان كان للرحمن ذا عصيان، وهو أبعد في العصيان من العاصي.

وقيل: العصي: هو العاصي، ومثله العليم هو العالم.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.

قال: يا أبتِ إني أخشى أن يصيبك عذاب من الله إن مت وأنت عابد للشيطان، وتكبير لفظ: (عذاب) للتعظيم، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، فتكون للشيطان قريناً في جهنم؛ لأن الأولياء لا يكادون يفترون في محبوبٍ أو مكروه.

وقال الفراء والطبري: الخوفُ في هذا الموضع بمعنى العلم، كما الخشية بمعنى العلم، في قوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]، أي: فعلنا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾. الآية/ ٤٦ - ٥٠.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال أبوه مجيباً له: أ معرض أنت عن آلهتي وتارك عبادتها، يقال: رغب في الشيء؛ أي: أراده وأقبل عليه، ورغب عن الشيء. إذا أباه وأعرض عنه.

﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

اللام هي الموطئة للقسم؛ أي: أقسم لئن لم تنته عما تفعله من النهي عن عبادتها لأرجمك بالحجارة. وقيل: شتماً باللسان، ﴿واهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، أي: زماناً طويلاً من الملاوة، وقال السدي: ﴿واهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، قال: أبداً.



﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾.

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه حين توعده بالرحم على دعوته إياه إلى عبادة الله وتوحيده، قال: سلامٌ عليك يا أبت، يقول: أنت سالم مني لا يصل إليك مني شيء تكرهه، ومع ذلك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، أي: سأسأل لك ربي أن يغفر لك وأن يعفو عنك ما اقترفته من الشرك وعبادة غير الله.

وقيل: وعد أباه أن يستغفر له وهو لا يعلم أن ذلك محذور على المصر على الكفر فلما أعلمه الله تبرأ من؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾<sup>١</sup>.

ويحتمل أنه ظل يدعو له؛ كما قال: ﴿وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٦، ٨٧]، وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، ولم ينهه الله تعالى عن الدعاء له؛ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَزْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِهِ آزْرٌ قَتْرَةٌ وَغَيْرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَلَّا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتِ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِدِيحٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤَخِّدُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»<sup>٢</sup>.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

الحفي: البليغ في البر والإلطف والإكرام؛ أي: كان بي لطيفاً، ولي مكرماً، قال ابن عباس، ومقاتل: لطيفاً باراً.

وقال مجاهد: عودني الإجابة لدعائي.

﴿وَأَعْتَرِكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

١ - سورة التوبة: الآية/ ١١٤

٢ - رواه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾، حديث رقم: ٣٣٥٠

أي: وأهجركم وأتبرأ منكم ومن آهتكم التي تعبدونها من دون الله، وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾، أي: راجياً أن تقع عبادتي متقبلةً فلا أشقى بردها، كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام، وعسى هنا واجبة، فإنه أبو الأنبياء وإمام الحنفاء. ﴿فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

فلما اعتزلهم وتبرأ منهم ومن آهتهم بهجرته من أرض بابل إلى أرض الشام؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ﴾ [الصفات: ٩٩]، أبدله الله خيراً منهم، ووهب له إسحاق ابناً ويعقوب حفيداً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَّرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فجعل له نسلًا وعقبًا أنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، وجعل الله كل واحد منهما نبياً، أقر عينه بهما إكراماً له. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾.

يقول تعالى: وأعطيناهم من نعمتنا، وسعة فضلنا من المال والولد وباركنا فيهم.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

وجعلنا لهم ثناءً حسناً في الناس إلى يوم القيامة، ومن ذلك الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في الصلوات إلى قيام الساعة، وعبر عن الثناء باللسان لأنه يوجد به، ووصف اللسان بالصدق؛ لأنه ثناء حسن لا كذب فيه، وقوله: ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأن الله أعلى ذكرهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. الآية/ ٥١ -



يقول الله تعالى لنبِيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: واذكُرْ يا محمدُ في القرآن الذي أنزلناه إليك، موسى بن عمران.

﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا﴾ بفتح اللام؛ أي: أخلصه الله واختاره واصطفاه بالرسالة والنبوة، وقرأ الباقون ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا﴾ بكسر اللام؛ مخلصاً دينه وعبادته لله تعالى وحده، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾. الرسول هو مَنْ أوحى إليه وأمر بالتبليغ وأتى بشرع جديد، والنبى هو مَنْ أوحى إليه وأمر بالتبليغ ولم يأت بشرع جديد، وقد اجتمع الوصفان في موسى عليه السلام، وهو أحد أولي العزم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

الطور: هو جبل الطور بسيناء، وجانب الطور الأيمن، أي: الجانب الذي كان على يمين موسى وهو متوجّه إليه، ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، أي: أذنيناه تشريقاً بتقريب المنزلة عندنا بالمناجاة وتكليمنا إياه بلا واسطة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

يقول تعالى: ووهبنا لموسى رحمةً منا أخاه هارونَ نبياً، حين سأل موسى ربه فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَارُونَ أَخِي<sup>١</sup>.

قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى، ولكن إنما وهب له نبوته.

﴿وَاذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾.

يقول الله تعالى لنبِيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: واذكرْ يا محمدُ في القرآن الذي أنزلناه إليك، إسماعيل بن إبراهيم، وإنما أفردته بالذكر، وفصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه، للتبويه بفضله، وإبراز كمال الاعتناء بأمره.

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

خصه بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له؛ ولأنه المشهور من خصاله، ومن ذلك قوله لأبيه: ﴿سَنَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَكَانَ يُأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

يجبر الله تعالى أن من صفات إسماعيل عليه السلام أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وفيه بيان أن أولى ما ينبغي على العبد أن يصرف إليه عنايته، تفقد أهله، وأمرهم بالخير ونهيهم عن الشر؛ كما قال الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>٢</sup>.

وقيل: المراد بالأهل هنا قومه الذين أرسل إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، قيل: أراد جميع من اتبعه وآمن به؛ لأنهم يحلون بالطاعة له محل أهله، وخصت الصلاة والزكاة بالذكر؛ لأنهما أمّا العبادات البدنية والمالية.

﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر يا محمد في القرآن إدريس، وقص على أمتك خبره، ثم فصل ما أجمل فقال: ﴿نَبِيًّا﴾، على وزن فاعيل مبالغة في الصدق، ﴿نَبِيًّا﴾، اصطفاه الله تعالى بالنبوة.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

يعني في الجنة، وقيل: رفعناه بالنبوة والعلم فوق كثير من الخلق.

١ - سورة الصافات: الآية/ ١٠٢

٢ - سورة الشعراء: الآية/ ٢١٤



وأما ما روي أنه رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ أَوْ إِلَى الْجَنَّةِ وَهُوَ حَيٌّ فَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا فِيهَا بُكْرَةٌ وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾. الآية / ٥٨ - ٦٣

### مناسبة الآيات لما قبلها:

لما تقدم ثناء الله تعالى على كل واحد ممن تقدم ذكرهم من الأنبياء بما يخصه من الثناء، ذكرهم الله تعالى جمعهم الله تعالى بثناء يشملهم ويشمل غيرهم ممن لم يتقد لهم ذكر في هذه السورة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾.

يقول الله تعالى: أولئك الذين تقدم ذكرهم هم الذين أنعم الله عليهم بالاصطفاء بالنبوة ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾، ومن هنا بيانية؛ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم.

﴿مِنَ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾.

من هنا للتبعيض، والمراد إدريس عليه السلام لأنه متقدم في الزمن على نوح عليه السلام، ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، المراد إبراهيم عليه السلام لأنه من ولد سام بن نوح، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، المراد إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾؛ أي: ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب، والمراد بهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾.

أي: ومن جملة من هديناهم إلى الحق، واجتبتناهم بالنبوة.

﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

إذا سمعوا كلام الله المتضمن أسماءه الحسنى وصفاته العلى، ودلائل قدرته، وحُجَجه وبراهينه، خروا ساجدين لربهم وهم سيكون خشوعًا وخضوعًا واستكانة لعظمته، قال الزجاج: ﴿بُكِيًّا﴾ جمع باك؛ مثل شاهدٍ وشهودٍ، وقاعدٍ وقُعودٍ، وكان من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم البكاء عن سماع القرآن؛ فعن عبد الله بن مسعودٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقْرَأُ عَلَيَّ، قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، قَالَ: فَقَرَأْتُ النَّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، قَالَ لِي: كُفِّ، أَوْ أَمْسِكْ، فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْرِفَانِ»<sup>١</sup>.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

يقول الله تعالى: فخلف بعد أولئك الأنبياء المذكورين خلف سوء لم يقتدوا بهم في عبادتهم ولا أخلاقهم.

يقال لعقب الخير خلفٌ بفتح اللام ولعقب شر خلفٌ بالسكون أي: فعقبهم وجاء بعدهم عقبٌ سوء، قال لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ \*\*\*\*\* وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وقد جمع اللفظان في قول الشاعر:

خَلْفَتْ خَلْفًا وَلَمْ تَدَعْ خَلْفًا \*\*\*\*\* لَيْتَ بِهِمْ كَانَ لَا بَكَ التَّلْفَا

وقال أبو حاتم: الخلف بالسكون الأولاد الجمع والواحد فيه سواء وبالفتح البدل ولدًا كان أو غيره.

وقال النضر بن شميل: الخلف بالتحريك والإسكان القرن السوء أما الصالح فالتحريك لا غير.

﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾.

١ - رواه البخاري - كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن، حديث رقم: ٥٠٥٥، ومسلم - كتاب صلاة المسافرين

وقصرها، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظه للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر، حديث رقم: ٨٠٠



اختلف العلماء في المراد بقوله: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، فقيل: المراد بإضاعتها تَرْكُهَا بالكلية، وقيل المراد: إضاعة مواقيتها، وتركها حتى يخرج وقتها.

عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ و ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، و ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟ قال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذاك الكفر.

وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات.

وقرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿فَحَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

واستدل العلماء بهذه الآية على كفر تارك الصلاة، بما رواه مسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ».<sup>١</sup>

وبما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ».<sup>٢</sup>

﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾.

قال ابن عباس: هم اليهود تركوا الصلاة وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب. وقال مجاهد: هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الأسواق والأزقة.

والراجح أنها تشمل كل من ضيع الصلاة وأطلق لنفسه العنان في الشهوات المحرمة كالزنا وتعاطي الخمر.

١ - رواه مسلم - كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، حديث رقم: ٨٢

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٢٩٣٧، والترمذي - أبواب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في ترك الصلاة، حديث رقم: ٢٦٢١، وابن ماجه - كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، حديث رقم:

١٠٧٩، بسند صحيح

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

قال ابن عباس: أي: خسراناً. وقال قتادة: شرّاً. وعن ابن عباس: الغيُّ: واد في جهنم.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

أي: سيلقى خلف السوء هؤلاء غيًّا وشرّاً عظيمًا الذين أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، إلا من تاب منهم ورجع عن غيه بالتفريط في الصلاة ومعاقرة الشهوات، وآمن بالله حق الإيمان، ولم يكن إيمانه مجرد ادعاء، وفي الآية دليل على أنه ترك الصلاة كفر، وعمل صالحًا يتقرب به إلى الله تعالى، ويكفر الله تعالى به من سلف من تفريطه.

﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

أي: ولا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾.

بدل من الجنة لاشتمالها عليها، ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾، أي: التي وعد بها عباده المؤمنين الذين تابوا وعملوا صالحاً، وعدهم بالوحي إلى نبيّه وهي غائبة عنهم، وهم غائبون عنها. ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن، ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾؛ أي: موعودُهُ وهو الجنة ﴿مَأْتِيًّا﴾، أي: يأتيه المؤمنون.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾.

اللغو هو الباطل من الكلام، والتافه الذي لا فائدة فيه، ويدخل في ذلك كل كلام قبيح؛ وهذه الآية كقوله: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾، استثناء منقطع؛ لأن السلام ليس من جنس اللغو، ومعناه ولكن يسمعون كل كلام جميل؛ كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا \*



إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا ﴿[الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ومنه تسليم الملائكة عليهم؛ كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾<sup>١</sup>.  
﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

أي: ولهم في الجنة رزق دائم لا ينقطع، لأنهم يأكلون تنعمًا وتفكهاً ولا يأكلون عن جوع، وذكر البكرة والعشي على سبيل المثال، وإلا فلا بكرة ولا عشي في الجنة.  
﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾.

إشارة إلى الجنة التي تقدم وصفها بهذه الصفات العظيمة، والإشارة بـ (تلك) التي يشار بها للبعيد إعلاءً لشأنها، ﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾؛ أي: نجعلها ميراثاً لمن كان متقياً لله تعالى في الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>٢</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾. الآية/  
٦٤، ٦٥

### سبب نزول الآية:

سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت الآية؛ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَجِبْرِيلَ: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا، فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾»<sup>٣</sup>.

١ - سورة الرعد: الآية/ ٢٣، ٢٤

٢ - سورة الأعراف: الآية/ ٤٣

٣ - رواه البخاري - كتاب التفسير، باب: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، حديث رقم: ٤٧٣١

لما استبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل ثم جاءه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فقال جبريل عليه السلام: ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ...﴾؛ أي: لا أنزل إلا إذا أمرت بالنزول.

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾.

تقول الملائكة إقراراً بعبوديتهم لله تعالى: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾، من أمر الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾، من أمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾، أي: ما بين النفختين.

وقيل: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾، أي: ما نستقبل من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾، أي: ما مضى من الدنيا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾، أي: ما بين الدنيا والآخرة.

وقيل: المراد إظهار الخضوع والإذعان لأمر الله تعالى في كل الأحوال والأزمان، أي: هو المدبر لنا في كل الأوقات الماضي والمستقبل وما بينهما، يتصرف فينا بحسب مشيئته وإرادته وحكمته لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

وقال الأخفش: اللام في قوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾، لبيان العلم، وهو في معنى قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قلت: ويقوي هذا القول تذييل الآية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، فتصرفهم بعلم الله تعالى، وأمره، وحكمته.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

﴿نَسِيًّا﴾، فعيل من النسيان، ويطلق النسيان ويراد به الغفلة والذهول عن الأمور، ويطلق ويراد به الترك، فعلى المعنى الأول يكون المراد: وما كان ربك ذا غفلة ونسيان فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا ياذنه؟

وعلى المعنى الثاني: وما نسيك ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم فتكون هذه الآية كقوله: ﴿وَمَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]، والراجح هنا المعنى الأول؛ لدلالته على تمام العلم وكمالته.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.



أي: هو رب السماوات والأرض وما بينهما، فاعبده بلزوم طاعته، والذلل لأمره ونهيهِ، وكمال حبه، والفاء للسببية؛ لأن كونه رب السماوات والأرض وما بينهما سبب موجب لأن يعبد، ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، الاصطبار: شدة الصبر على الأمر الشاق، والأصل أن يعدى فعل الصبر بـ (على) كما في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وعدي هنا باللام لتضمنه معنى الثبات؛ لأنَّ العبادة ذات تكاليف قل من يصبر لها، وتقدير الكلام: فاثبت لها مصطبراً.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

أي: هل تعلم لربك الذي أمرت بعبادته، والصبر على طاعته مثلاً أو شبهاً في أسمائه وصفاته؟

عن ابن عباسٍ قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾. يقول: هل تعلم للرب مثلاً أو شبهاً؟<sup>١</sup>

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا (٦٧) فَو رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّكَ وَالشَّيَاطِينَ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا صِلِيًّا﴾.

الآية/ ٦٦ - ٧٠

مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى جزاء خلف السوء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأنهم سوف يلقون عيًّا ثم استثنى منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً وأخبر بما أعد لهم من جنات عدن وفصل في ذكر شيء من النعيم فيها، ذكر الله تعالى هنا أولئك المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ولا يؤمنون بالجزاء والحساب، وما بين الكلامين جمل اعتراضية.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾.

الإنسان هنا عام يراد به الخصوص، وهو الإنسان الذي لا يؤمن بالبعث والنشور، يخبر الله تعالى عن هذا الصنف من الناس الذين اتخذوا دينهم لعباً وهواً وغرّتهم الحياة الدنيا، والذين لا يؤمنون والذين لا

١ - تفسير الطبري (١٥ / ٥٨٥)

يرجون جزاء ولا يخافون عقاباً: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، كأنه يقول تعالى: مع ما فصلناه من الجزاء الأخروي، ومع ما بيناه من النعيم والعذاب المقيم في الآخر مع ذلك يقول الإنسان: ﴿إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، فالواو هنا واو الحال، والاستفهام هنا للإنكار والتكذيب، وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر بخلاف عنه: ﴿إِذَا مَا مِتُّ...﴾، بهمزة واحدة على الخبر، فيكون إخباراً على سبيل السخرية والاستهزاء بمن يقول ذلك، وكان مشركوا قريش دهرين لا يؤمنون بالبعث والنشور.

وقال الكلبي: نزلت في أبي بن خلف حين أخذ عظاماً بالية يفتها بيده ويقول: زعم لكم محمد أنا نبعت بعدما نموت.

﴿أَوَّلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَمَ يَكُ شَيْئًا﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: أيقول هذا وينكر قدرتنا على الإعادة؟

أو لا يذكر هذا الإنسان المنكر قدرة الله على إحيائه بعد الموت أن الله خلقه من قبل من العدم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾<sup>١</sup>.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهمُ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

يقول تعالى لرسول صلى الله عليه وسلم: فوربك يا محمد لنحشرن هؤلاء المنكرين للبعث مقرنين بأوليائهم من الشياطين، ثم لنأتين بهم ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، باركين على ركبهم.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾.

الزنع هو قلع الشيء من مكانه بقوة، وإخراجه مما كان متصلًا به، يقول الله تعالى: ثم لناخذن من كل طائفة تعاونت على الكفر أشدهم كفرًا، وتمردًا على أمر الله تعالى ثم الذي يليه.

١ - سورة يس: الآية/ ٧٨، ٧٩



﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صَلِيلًا﴾.

يقول الله تعالى: ثم لنحن أعلم بمن هم أولى بشدة العذاب في النار، وأحقّ بعظيم العقوبة، يقال: صلى النار يصلها صليلاً، مثل: مضى يمضي مضياً إذا دخل النار وقاسى حرها.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُلْتَمَسُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِعْيًا﴾. الآية / ٧١ - ٧٤

يقول الله تعالى: وما منكم من أحد أيها الناس ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾، يعني النار، واختلف العلماء في المراد بالورود هنا، فقيل: الورد الدخول؛ فعن قيس بن أبي حازم قال: بكى ابن رَوَاحَةَ، وَبَكَتِ امْرَأَتُهُ، فَقَالَ لَهَا ابْنُ رَوَاحَةَ: «مَا يُبْكِيكَ؟» قَالَتْ: بَكَيْنَا حِينَ رَأَيْنَاكَ تَبْكِي، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «قَدْ عَلِمْتُ أَيُّ وَارِدِ النَّارِ، فَلَا أَدْرِي أَنَا جِ مِنْهَا أَمْ لَا؟»<sup>١</sup>.

وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِأَخِيهِ: «يَا أَخِي، هَلْ أَتَاكَ أَتَاكَ وَارِدُ النَّارِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَهَلْ أَتَاكَ أَتَاكَ خَارِجٍ مِنْهَا؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَفِيمَا الضَّحِكُ؟» قَالَ: فَمَا رُئِيَ ضَاحِكًا حَتَّى مَاتَ<sup>٢</sup>.

وَعَنْ أَبِي سَمِيَةَ، قَالَ: اخْتَلَفْنَا هَاهُنَا فِي الْوُرُودِ، فَقَالَ بَعْضُنَا: لَا يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ، وَقَالَ بَعْضُنَا: يَدْخُلُوهَا جَمِيعًا، ثُمَّ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا، فَلَقِيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا اخْتَلَفْنَا هَاهُنَا فِي الْوُرُودِ. فَقَالَ يَرُدُّوهَا جَمِيعًا وَقَالَ سُلَيْمَانُ مَرَّةً: يَدْخُلُوهَا جَمِيعًا فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا اخْتَلَفْنَا فِي ذَلِكَ الْوُرُودِ، فَقَالَ بَعْضُنَا: لَا يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ، وَقَالَ بَعْضُنَا: يَدْخُلُوهَا جَمِيعًا. فَأَهْوَى بِإِصْبَعِيهِ إِلَى أُذُنِيهِ، وَقَالَ: صُمَّتَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الْوُرُودُ: الدُّخُولُ، لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا

١ - رواه ابن المبارك في الزهد - رقم: ٣١٠، وعبد الرزاق في تفسيره - رقم: ١٧٧٩، وسعيد بن منصور في السنن - رقم: ١٤٠٠،

والنسائي في السنن الكبرى - رقم: ١١٨٣٦

٢ - رواه عبد الله بن المبارك في الزهد - رقم: ٣١١

فَاجْرُ إِلَّا دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ أَوْ قَالَ: لِحَيْثُمْ ضَحِيحًا مِنْ بَرْدِهِمْ ثُمَّ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَيَدْرُ الضَّالِّمِينَ فِيهَا جَنًّا" ١.

عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يُخَاصِمُ نَافِعَ بْنَ الْأَزْرَقِيِّ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «الْوُرُودُ الدُّخُولُ»، فَقَالَ نَافِعٌ: لَا، قَالَ: فَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، «أُورِدَ هُوَ لَاءِ أَمْ لَا؟» وَقَرَأَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، أُورِدَ هُوَ لَاءِ أَمْ لَا؟ أَمَّا أَنَا وَأَنْتَ فَسَنَدُخُلُهَا، فَانظُرْ هَلْ تُخْرِجُ مِنْهَا أُمَّ لَا؟ وَمَا أَرَى اللَّهَ مُخْرِجَكَ مِنْهَا؛ لِتَكْذِيبِكَ" قَالَ: فَضَحِكَ نَافِعٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَقِيمَ الضَّحِكُ إِذَا؟» ٢.

وقيل الورد: مرور المسلمين على الصراط، وورود المشركين أن يدخلوها.

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرَيْهَا، وورود المشركين أن يدخلوها. ٣

وعن قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: هو الممر عليها.

عَنْ أُمِّ مُبَشَّرٍ، أَهْمَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا»، قَالَتْ حَفْصَةُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاثْتَهَرَهَا، قَالَتْ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الضَّالِّمِينَ فِيهَا جَنًّا﴾ ٤.

١ - رواه أحمد رقم: ١٤٥٢٠، بسند ضعيف

٢ - رواه عبد الرزاق في التفسير - رقم: ١٧٨٠

٣ - تفسير الطبري (١٥ / ٥٩٧)

٤ - رواه عبد الله بن المبارك في الزهد - رقم: ١٤١٧، وأحمد - حديث رقم: ٢٦٤٤٠، بسند صحيح



عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾. قال: الصراطُ على جهنم مثلُ حَدِّ السيفِ، فتَمُرُّ الطبقةُ الأولى كالبرقِ، والثانيةُ كالريحِ، والثالثةُ كأجودِ الخيلِ، والرابعةُ كأجودِ البهائمِ، ثم يَمُرُّون والملائكةُ يقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ.<sup>١</sup>

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ».<sup>٢</sup>

وقيل المراد بالورود: الدُخُولُ لكنه خاص بالكفار.

روى ابن جرير أن ابن عباسٍ كان يقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، (وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا وَارِدُهَا): يعني الكفار. قال: لا يَرِدُهَا مؤمنٌ.<sup>٣</sup>

وكان عكرمة يقرأها: (وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا وَارِدُهَا): يعني الكفار.

﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾.

أي: كان ورودكم النار أمر لازم متحتم قضاءه الله تعالى.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

يقول الله تعالى: ثم ننجي الذين اتقوا الكفر ونترك من كفر الله في النار باركين على ركبهم.

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾. قال: الجِثِيُّ شَرُّ الجُلُوسِ، لا يجلسُ الرجلُ جاثيًّا إلا عندَ كَرَبٍ يَنْزِلُ بِهِ.<sup>٤</sup>

١ - رواه يحيى بن سلام في تفسيره (٢٣٧/١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٥/٥٩٥)، والحاكم في المستدرک - كتاب التفسير،

حديث رقم: ٣٤٦٢

٢ - رواه البخاري - كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، حديث رقم: ٦٦٥٦، ومسلم -

كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، حديث رقم: ٢٦٣٢

٣ - تفسير الطبري (١٥/٥٩٦)

﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

يقول الله تعالى: وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آياتنا الواضحات المنزلة على رسول الله محمد صلى الله وسلم الدالة على توحيد الله تعالى قال مشركوا قريش للفقراء الذين آمنوا ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. أي: نحن أم أنتم أحسن منازل وأرفع دورًا وأحسن نديًّا، أي: مجلسًا ومجتمعًا، والنادي: المجلس، يجتمع القوم فيه للمشاورة والحديث.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرَعِيًّا﴾.

قوله: ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾. ومن هنا بيانية، وقوله: ﴿أَحْسَنُ أَثَانًا﴾. الأثان: متاع المنزل، ﴿وَرَعِيًّا﴾. أي: منظرًا، لما افتخروا بكثرة المتاع وبجمال الهيئات وارتفاع الدور وحسن المجالس، أخبر الله تعالى أن ذلك كله لا قيمة له عند الله تعالى مع كفرهم، فإن الله تعالى قد أهلك قبلهم كثيرًا من القرون كانوا أكثر منهم أموالًا وأحسن منهم متاعًا وأجمل منهم هيئة، فأهلك الله أموالهم، وغير صورهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾. الآية/ ٧٥ - ٨٠.

يقول الله تعالى لبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين يزعمون أنهم على الحق وأنكم على الباطل قل لهم: من كان منا ومنكم في الضلالة والغي فليمدد له الرحمن فيها مدًّا، ويعلي له ويمهله استدراجًا وقطعًا لمعاذيره، وهذا أمر ومعناه الخبر.

قال مجاهدٌ قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾. فليدعه الله في طغيانه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾.



حتى إذا رأى أولئك الذين مدَّ الله تعالى لهم في غيهم ما توعدهم الله به من العذاب العاجل بالقتل في الدنيا، وحينها سيعلمون أي الفريقين أضعف جنداً، أو يلقوا ربهم عند قيام الساعة التي وعد الله خلقه أن يجمعهم لها، فسيعلمون حينئذٍ من هو شرُّ مسكناً، حين يرون مكانهم في النار، ردّاً على قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

ويزيد الله الذين اهتدوا هدى بما ينزل من القرآن، وبما يتحقق من وعد الله لهم بالنصر والتمكين.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾.

أي: والطاعات التي يتقربون بها إلى الله تعالى كالصلاة، والتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، خير لهم أجراً ومثوبة عند الله تعالى، وخير لهم في عاقبة أمرهم يوم القيامة من كل شيء سواها.

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ» قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»<sup>١</sup>.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالاً وَوَلَدًا﴾.

### سبب نزول الآية:

سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري ومسلم عن حَبَابٍ قَالَ: «كَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَاثِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَنْقَاضَهُ فَقَالَ لِي: لَنْ أَفْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي لَنْ أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ؟ فَسَوَفَ أَفْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ. قَالَ

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ١١٧١٣، وأبو يعلى - حديث رقم: ١٣٨٤، وابن حبان - النوع الثاني: ألفاظ الوعد التي مرادها الأوامر باستعمال تلك الأشياء، ذكر البيان بأن الكلمات التي ذكرناها مع التبري من الحول والقوة إلا بالله مع الباقيات الصالحات، حديث رقم: ٥٥٢، والحاكم - كتاب الدعاء والتسبيح والتكبير والتهليل والذكر، حديث رقم: ١٩١٠، والطبراني في الدعاء - باب فضل التسبيح والتحميد، حديث رقم: ١٦٩٦، بسند ضعيف

سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عَلَامِ الْغُيُوبِ

وَكَيْعٌ: كَذَا قَالَ الْأَعْمَشُ. قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾<sup>١</sup>.

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم معجباً له من شأن العاص بن وائل السهمي وجراته على الله تعالى: أفرأيت يا محمد هذا الذي كفر بآيات الله الدالة على وحدانيته، وقال على سبيل السخرية والإنكار: إن بعثت لأعطين مالا وولداً.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

استشرف الغيب وعلم ما كتب فيه؟ والاطِّلاع: الإشراف على الشيء والنظرُ إليه، أم عنده ميثاق من الله تعالى بالنجاة من العذاب يوم القيامة ودخول الجنة؟ وهو سؤال الغرض منه الإنكار والتفريع.

﴿كَأَلَّا سَكَتْنُ مَا يَقُولُ﴾.

﴿كَأَلَّا﴾، ردعٌ له وزجر عن التفوه بذلك الكلام، وتنبيةٌ على شناعة قوله، فليس الأمر كما يزعم، فإنه ما اطَّلَعَ الغيب وما اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً بالنجاة يوم القيامة، وإنما سكتب ملائكتنا ما يقوله ويحاسب عليه يوم القيامة.

﴿وَمَثُودٌ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾.

أي: ونزيده عذاباً فوق العذاب.

﴿وَنَزَّهَتْهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

أي: ونهله ففلسه ماله، ويأتينا يوم القيامة لا مال له ولا ولد.

١ - رواه البخاري - كتاب التفسير، باب قوله عز وجل: ﴿وَنَزَّهَتْهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾. حديث رقم: ٤٧٣٥، ومسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، حديث رقم: ٢٧٩٥



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾. الآية/ ٨١ - ٨٤

يقول الله تعالى: واتخذ هؤلاء الوثنيون من دون الله آلهة ليشفوا لهم عند الله ويقربوهم إلى الله تعالى، ويمنعوهم من عذاب الله.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

﴿كَلَّا﴾. ليس الأمر كما ظنوا أن هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله تجلب لهم خيراً أو تدفع عنهم ضرراً، فضلاً عن أن تنقدهم من عذاب الله إذا نزل بهم، بل ستبرأ منهم معبوداتهم التي عبدوها من دون الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

أي: ويكونون عليهم ذلاً وهواناً، في مقابلة ما أرادوا منهم من العز والكرامة.

وقال السدي: خصماء أشداء في الخصومة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾.

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ألم تر يا محمد أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين وسلطانهم عليهم حين آثروا الكفر على الإيمان، والإرسال: التخلية، من أرسلت البعير إذا أطلقتته وخليته، والأصل أن الإرسال يعدي بـ (إلى) وعدي بـ (على) هنا لتضمنه معنى التسليط، أي: خليئاهم مسلطين عليهم بالإغراء، وذلك قول الله تعالى لإبليس: ﴿وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ

١ - سورة القصص: الآية/ ٦٢، ٦٣

بِصَوْتِكَ ﴿ [الإسراء: ٦٤]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿تَوَزَّهُمْ أَزَّاءً﴾، أي: تزعجهم وتغريهم بالمعاصي وتدفعهم إليها دفعا، والأز التهيج والإغراء.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾.

أي: فلا تطلب نزول العذاب عليهم قبل حينه، إنما نعد لهم أنفاسهم وأعمارهم، حتى يستوفوا آجالهم، فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَاءً (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدَاءً (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾. الآية/ ٨٥ - ٩٥

في الكلام حذف اختصار تقديره: إنما نعد لهم عداً لنجازيهم على أعمالهم يوم نحشر المؤمنين الذين اتقوا الله في الدنيا بامثال أوامره واجتناب نواهيه، والحشر: الجمع من جهات متعدّدة، إلى الرحمن وفداً؛ أي: ركبناً مكرمين، كما تفد الوفود على الملوك، قال ابن عباس: ركبناً.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدَاءً﴾.

ونسوق الكافرين سوق الأنعام، ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدَاءً﴾؛ أي: عطاشاً؛ لأن من يرد الماء لا يردّه إلا لعطش، والتعبير بالسوق إهانة لهم وإذلالاً.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

الضمير عائد على المجرمين، والاستثناء هنا منقطع؛ أي: لا يملك هؤلاء المجرمون الشفاعة التي زعموا أنهم إنما عبدوا أصنامهم من أجلها فقالوا: ﴿هؤُلاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ولكن من اتخذ عند الرحمن عهداً وهو الإيمان والعمل الصالح، فإنه يملك الشفاعة.

وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾. أي: لا يستطيعون، ويطلق الملك ويراد به الاستطاعة.



وقيل: الضمير عائد على الفريقين المتقين والمجرمين، والراجح الأول لأن الكلام في معرض الذم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.

الكلام معطوف على قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾. [الآية: ٨١]، فإنه لون من ألوان الكفر، وصورة من صور الشرك، وفيه ردٌّ على اليهود والنصارى ومشركي العرب، وكل من نسب لله تعالى الولد.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾.

وحكاية قولهم للتشيع عليهم وبيان فساد اعتقادهم، والإد: الشيء العظيم، والمنكر من القول، وفي الكلام التفات من الغيبة للخطاب للمبالغة في ذمهم، وتسجيل جرأتهم على الله تعالى.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾.

يخبر الله تعالى عن خطر قول المشركين: (اتخذ الله ولداً)، وعن كبر هذه الكلمة وشناعتها، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وأن من خطر هذا القول تكاد السماوات السبع يتشققن غضباً لله تعالى من قولهم، والانفطار: الانشقاق، وأن الأرض تكاد أن تتصدع من هول تلك الكلمة، وأن الجبال تكاد أن تسقط متهدمة خوفاً من الله تعالى، من بشاعة ادعائه للرحمن ولداً.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

أي: لا يصلح له أن يتخذ ولداً، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ وكمال غناه.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

إن نافية، أي: ما من أحد من كل من في الكون من الخلق إلا وهو خاضع لأمر الله تعالى، ذليل بين يديه، مقررٌ بالعبودية له تجري عليه أحكام الله تعالى.

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

الإحصاء: الحَصْرُ والضبطُ، أي: أحاط بهم علمه، فلا يعزب عن علمه منهم شيء، ﴿وَعَدَّهْمُ عَدًّا﴾. أي: علم تفاصيلهم وأعدادهم، بأشخاصهم.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.

وكل واحد من أهل السماوات والأرض آتية سبحانه وتعالى منفردًا عن غيره، منقطعًا إلى ربه، ليس بينه وبينه وسيط وترجمان.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾. الآية/ ٩٦ - ٩٨

يقول الله تعالى: إن الذين آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وصدقوا رسل ربهم وآمنوا بما أنزل إليهم، وعملوا بطاعة الله؛ فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، سيجعل لهم الرحمن محبة في صدور عباده المؤمنين.

قال مجاهد: يحبهم ويحبهم إلى المؤمنين.

وقال قتادة: ما أقبل عبدٌ إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه، وزاده من عنده.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾.

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ بِلِسَانِكَ، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾. برضوان الله والجنة، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾. وتنذر به قومًا هم أهل لُدِّ وجدلٍ بالباطل، لا يقبلون الحق. واللُدُّ جمع الألدِّ، وهو شديد الخصومة في الباطل، واللُدُّ: شدة الخصومة.

قال أبو عبيدة: الألد الذي لا يقبل الحق، ويدعي الباطل.

قال ابن الأنباري: وخص اللد بالإنذار؛ لأنهم إذا قامت عليه الحجة صار غيرهم لاحقًا بهم من أجل أن الذي لا عناد عنده يسرع انقياده، فالمقصود بالإنذار هؤلاء اللد المخاصمون.



﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾.

أي: وكثيرا ما أهلكنا قبلهم من الأمم الذين عتوا عن أمر ربهم وكذبوا رسله.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

سؤال الغرض منه النفي، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾. أي: لا تجد لأحد منهم من أثر، ولا بقيت

لهم بقية؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾. وهل تسمع لهم ولو صوتاً خفياً؟

الركز: الصوت الخفي، وأصل مادة ركز: أخفى، ومنه: ركز الرُمح، إذا غيَّب طرفه في الأرض، والركاز:

المال المدفون. والمعنى: أهلكناهم فلم يبق منهم شخص يُرى ولا صوت يُسمع، ونُسي ذكرهم فلا يخبر

عنهم مخبر، وفي الكلام تهديد ووعيد لمشركي قريش.

قال الحسن: بادوا جميعاً، فلم يبق منهم عين ولا أثر.

آخر تفسير سورة مريم والله الحمد والمنة.

## تفسير سورة طه

سورة طه مكية.

بين يدي السورة:

سورة طه شأنها شأن السور المكية التي تتكلم عن دلائل وحدانية الله تعالى ودلائل قدرته، فهو تعالى خالق كل شيء، وبيده مقاليد كل شيء، وهو تعالى مستوٍ على عرشه، ولا تعزب عن علمه شيء، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾.

وتأخذ قصة موسى عليه السلام حيزًا كبيرًا من السورة، وتبدأ قصة موسى عليه السلام من بداية الوحي لموسى عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩)﴾، إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾، وفي ثنايا القصة إرسال الله تعالى موسى وهارون إلى فرعون، ودعوته إلى توحيد الله تعالى، وجدال فرعون لموسى، وما جرى بين موسى وسحرة فرعون، وسجودهم لله تعالى وإيمانهم به حين عاينوا الآية الكبرى، وعلموا أن ما جرى على يد موسى ليس سحرًا، وإنما معجزة باهرة، دالة دلالة قاطعة على صدق موسى عليه السلام: ﴿فَأَلْقَى السِّحْرَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)﴾، مع تهديد فرعون لهم بالعذاب الشديد، ﴿فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَيْكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١)﴾، ثم خروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر بأمر الله تعالى، ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧)﴾، فأتبعهم فرعون بجنوده بغيًا وعدوا حتى أغرقهم الله تعالى في البحر وبنوا إسرائيل ينظرون.

ثم ذكر الله تعالى قصة عبادة بني إسرائيل العجل في غياب موسى عليه السلام عنهم لمناجاة الله تعالى، ثم عودة موسى عليه السلام إليهم غضبان أسفًا، حتى أخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه، ثم تحريقه العجل ونسفه في البحر، وبيان أنه لا يستحق أن يعبد، فإنه لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، وأن الذي يستحق العبادة هو الله وحده؛ ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾.



ثم ذكر الله تعالى عقب قصة موسى عليه السلام حال من أعرض عن القرآن ولم يؤمن به، والنفخ في الصور، وحال الناس في أرض المحشر يوم القيامة؛ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١٠٢).

ثم ذكر الله تعالى قصة خلق آدم وعهد الله تعالى إليه، ونسيانه لذلك العهد وما ترتب على ذلك من انكشاف السوء، وأمر الله تعالى لهم بالهبوط من الجنة؛ ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَيِّ وَمَ نَحْدُ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥).

ثم ذكر الله تعالى حال من أعرض عن القرآن في أرض المحشر فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤).

ثم ختم الله تعالى السورة ببيان سنته فيمن كذب الرسل، تخويفاً للمشركين وزجراً لهم، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقولونه، والإقبال على عبادة الله تعالى حتى يكف الله تعالى بين عباده فقال: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿طه﴾ (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكِيرًا لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾. الآية/ ١ - ٦

﴿طه﴾، تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة، وأن القرآن من جنس ما تتكلمون به من الحروف.

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

هذا خطاب لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى له: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وذلك أنه كان يباليغ في الحزن على كفر قومه وإعراضهم عن الهدى حتى قال الله تعالى له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾

عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴿۸﴾ [فاطر: ۸]، وقال تعالى له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾<sup>١</sup>.

وأما ما روي من أن سبب نزول هذه الآية هو شدة اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في عبادة ربه فلا يصح؛ لأن مثل هذا لا يقال له شقاء، بل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»<sup>٢</sup>.

وظل على ذلك حتى لقي الله تعالى؛ فعن المغيرة بن شعبة: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»<sup>٣</sup>.

﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

استثناء منقطع، أي: لكن أنزلناه تذكرة لمن يخشى الله تعالى، وذكر من يخشى لأنه الذي ينتفع بما فيه.

﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾.

أي: هذا القرآن الذي جعلناه تذكرة لمن يخشى تنزيل من الله تعالى الذي خلق الأرض والسماوات العلى، وانتصب: ﴿تَنْزِيلًا﴾ على أنه بدل من ﴿تَذَكُّرَةً﴾.

قال ابن كمال باشا: فتحم شأن المنزل: أولاً بإسناد الإنزال إلى الواحد المتعالي، ثم بتكثير ﴿تَنْزِيلًا﴾ للتعظيم والإبهام والتوضيح، حيث لم يوصف، ثم بالالتفات من التكلم إلى الغيبة لاتعاط السامع

١ - سورة المائدة: الآية/ ٤١

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٤٠٣٧، والنسائي - كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، حديث رقم: ٣٩٤٠، وأبو يعلى - حديث رقم: ٣٥٣٠، عن أنس رضي الله عنه، بسند حسن

٣ - رواه البخاري - كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿لِيَعْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، حديث رقم: ٤٨٣٦، ومسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم: ٢٨١٩



والتَّبْيِيهِ عَلَى عَظْمِ شَأْنِهِ بِنَفْسِ الْكَلَامِ، ثُمَّ بِإِجْرَاءِ الصِّفَاتِ الْعِظَامِ الْعَجِيبَةِ عَلَى مَنْزِلِهِ، وَإِيرَادِ الْمَوْصُولِ ذَرِيعَةً إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ بِوَصْفِ السَّمَاوَاتِ بِالْعُلَى لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِلْوِ قَدْرِ خَالِقِهَا، ثُمَّ بِإِجْرَاءِ صِفَاتِ الْعِظَمَةِ وَالتَّمَجِيدِ، فَأَكَّدَ الْفَخَامَةَ بِوَجْهِ كَثِيرَةٍ وَطَرِيقٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَرَتَّبَ صِفَاتِهِ تَرْتِيبًا أُنَيْقًا، فَبَدَأَ أَوَّلًا بِإِيْجَادِهِ لِأَصُولِ الْعَالَمِ، وَقَدَّمَ الْأَرْضَ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى الْحَسَنِ، وَأَظْهَرَ نَفْعًا وَاحْتِيَاجًا إِلَيْهَا.<sup>١</sup>

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

استواءٌ يليق بذاته تعالى، بلا تكييف ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾.

اللام للملك، وتقديم الضمير للاختصاص، فالملك ملكه، والخلق خلقه، لا رب غيره، ولا إله إلا هو، ولا راد لأمره ولا معقب لحمه؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾، أي: وما تحت التراب، وقد اشتملت هذه الآية على كل ما في الكون.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾. الآية/ ٧ - ١٠

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، أي: وإن تجهر يا محمد بالقول فإن الله تعالى يعلم السر وهو ما أسرته إلى غيرك، ﴿وَأَخْفَى﴾ أي: ويعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما أضمرته في نفسك، ولم تخبر به أحدًا، والكلام منتظم في سياق بيان دلائل وحدانية الله تعالى وقدرته، فهو تعالى مستو على العرش، وهو مالك الملك، له ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهو عليم بمكونات النفوس، وكثيرا ما يقرن الله تعالى

١ - تفسير ابن كمال باشا (٦/ ٤١١)

بين استوائه على العرش والملك التام لما في السماوات والأرض، وعلمه المحيط بكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾<sup>١</sup>.

قال ابن عباس: ﴿السِّرِّ﴾: ما أسر ابن آدم في نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما خفي عليه مما هو فاعله قبل أن يعلمه.

وقال سعيد بن جبير: ﴿السِّرِّ﴾: ما أسر في نفسك، وأخفى من السر: ما يلقيه الله عز وجل في قلبك من بعد، ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك.

وقال الحسن: ﴿السِّرِّ﴾: ما أسر الرجل إلى غيره، وأخفى من ذلك: ما أسر من نفسه.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

أي: لا معبود بحق سواه، وهو تعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وتقديم الجار والمجرور للاختصاص؛ أي: التي لا تنبغي إلا له.

والحسنى تأنيث الأحسن؛ لأنها أحسن الأسماء وأكملها؛ لاشتمالها على معاني التقديس والتعظيم والربوبية.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾.

سؤال الغرض من التقرير، والحث على الإصغاء لما يأتي ذكره.

ذكر الله تعالى هنا قصة موسى عليه السلام لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة، وتكاليف الرسالة، والصبر على مقاساة الشدائد.

١ - سورة الحديد: الآية/ ٤ - ٦



﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُتُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾.

أي: حين رأى نارًا، وكان ذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صالح مدين ثم رجع بأهله قاصدًا بلاد مصر، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلًا بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلام، إذ ظهرت له نار من جانب الطور عن يمين موسى، فقال لأهله ييشرهم: ﴿امْكُتُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، أي: أقيموا. إني وجدت ما يؤنسني، أبصرت نارًا.

﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾.

أي: لعلِّي آتیکم منها بشهاب من نار أقتبسه منها؛ كما قال في موضع آخر: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧]، وفيه دليلٌ على وجود الظلام، وقال في الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، وهي الجمر: الذي معه هب، وفيه دليلٌ على شدة البرد، وقال لعلِّي لأن الأمر متوقع وليس متيقنًا.

﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾.

أو أسترشد بمن عند النار على الطريق، وفيه دليل على أنه أضل الطريق.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾. الآية/ ١١ - ١٦

أي: فلما أتى النار واقترب منها، وجد نارًا تتقد في أصل شجرة خضراء ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى﴾، بني للمفعول، وحذف الفاعل للتعظيم.

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾.

سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عَلَامِ الْغُيُوبِ

قال الله تعالى له: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾. يعني: إني أنا الله؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿تُودِي مِنِّي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وتكرير الضمير ﴿إِنِّي أَنَا﴾؛ لتوكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة، وإمالة الشبهة.

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾.

أمر بخلع نعليه تعظيمًا لحضرة القدس؛ وتأدبًا وتحشعًا وتواضعًا عند المناجاة، فإنَّ في الحفوة تواضعًا لله تعالى وتأدبًا، ولهذا كان السلف يطوفون بالبيت حافين.

﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

أي: إنك بالوادي المطهر، المبارك طوى.

والتعليل بقوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾، دليل على أنَّ ذلك احترام للبقعة، وتعظيم لها.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾.

أي: اصطفتيك للرسالة فاستمع لما يوحى إليك.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، لا إله غيري، ﴿فاعبُدني﴾. أي: فأخلص لي العبادة؛ فإنه يستحق العبادة غيري.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

وأقم الصلاة لي؛ فإنك إذا أقمتها تكون قد ذكرتي؛ وعن عائشة، قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمِي الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ»<sup>١</sup>.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾.

يقول الله تعالى: إن الساعة واقعة لا محالة، وكائنة لا بد منها.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٤٣٥١، وأبو داود - كتاب المناسك، باب في الرمل، حديث رقم: ١٨٨٨، والدارمي - من

كتاب المناسك، باب الذكر في الطواف والسعي بين الصفا والمروة، حديث رقم: ١٨٩٥، بسند حسن



﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾.

اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾، على عدة أقول:

منها: أكاد أخفيها من نفسي. وكان ابن عباس يقرؤها: "أكاد أخفيها من نفسي"، يقول: لا أطلع عليها أحدا غيري. وهو قول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء بن السائب.

وقال السدي: ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود: "إني أكاد أخفيها من نفسي"، يقول: كتمتها عن الخلائق، حتى لو استطعت أن أكنمها من نفسي لفعلت.

وقيل: أكاد هنا معناها أريد، قال ابن الأنباري وهو قول الأخفش: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾: (أريد أخفيها).<sup>١</sup>

وقيل: المراد أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به.

وقيل: ﴿أَخْفِيهَا﴾، من الأضداد للكتمان والإظهار؛ كالإسرار في قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ [يونس: ٥٤]، وقد قرئ في الشاذ: (أخفيها) بفتح الهمزة، ومعناه: أظهرها، يقال: خَفَى يَخْفِي خَفِيًّا، أي: أظهر، قال امرؤ القيس:

فإن تدفِنوا الداء لا نخفه \*\*\*\*\* وإن تبعثوا الحرب لا نقعدُ

وقيل: معناها أن الله تعالى أبهم وقت الساعة فلم يطلع عليه أحداً، حتى أنه كاد أن يخفي وقوعها لإبهام وقتها، ولكنه لم يخفيها إذا أخبر بوقوعها، وهذا أولى مما سبقه من الأقوال.

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾.

أي: فَلَا يَمْنَعُكَ عَنِ التَّصَدِيقِ وَالْإِيمَانِ بِهَا. ﴿لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾. أي: من لَا يَصْدُقُ بِهَا، وَآثَرُ مَا يَجِبُ مَخَالَفًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿فَتَرَدَى﴾. أي: فَتَهْلِكُ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾. الآية/ ١٧ - ٢٤

يقول الله تعالى: وما تلك التي في يمينك يا موسى؟

وإنما سأله الله تعالى سؤال تقرير، وهو أعلم لبيّن له قدرته؛ لأنه أراد أن يحولها إلى حية تسعى، ويعلم أنها ستكون المعجزة الدالة على صدقه أمام فرعون وقومه.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى﴾.

سأله الله تعالى عما في يمينه فقال: هي عصاي، ثم أجاب عما يصنع بها ولم يسأل عنه تلذذاً بخطاب الله تعالى، فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾، أي: أي أتحامل عليها في المشي والوقوف، ﴿وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾، وأخبط بها ورق الشجر؛ لترعاه غنمي، ﴿وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى﴾، كأنه أدركه الحياء حين استرسل في الكلام مع الله تعالى فقال: ولي فيها حاجات ومنافع أخرى، و﴿مَأْرَبٌ﴾، جمع مأربة بفتح الراء وضمها وهي الحاجة.

﴿قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾.

يعني: هذه العصا التي في يدك يا موسى، فألقاها فصارت حية عظيمة، تتحرك حركة سريعة، كأسرع الحيات، وإذا هي تمشي وتضطرب، فأيقن أن الذي يخاطبه هو الله الذي يقول للشيء كن فيكون، ووصفت هنا بأنها حية، وفي الأعراف بالثعبان لأنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان: ﴿فَإِذَا هِيَ نُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وفي سورة النمل كأنها جان: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُمَا جَانٌّ وَلِي مُدَبِّرًا وَمَلَمَّ يُعَقِّبُ﴾ [النمل: ١٠]؛ لأنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان.



﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

لما انقلبت العصا حية خاف موسى عليه السلام حتى ولي مدبراً، فأمره الله تعالى بأخذها وطمأنه فقال له: لا تخف سنعيدها لهيئتها الأولى التي كانت عليها.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾.

قال الله تعالى له: واضمم يدك فضعها في جيبك تحت عضدك، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]، والجناحان هما اليدان، قال الخليل: يدا الإنسان جناحاه، ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، أي: وأدخل يدك في جيبك ثم أخرجها تخرج بيضاء ناصعة من غير مرض كالبرص، ﴿آيَةً أُخْرَى﴾، غير آية العصا.

﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى.

وقيل: لنريك من آياتنا الآية الكبرى، فإن الكبرى تأنيث الأكبر، وهي نعت الآيات، قال أبو عبيدة: تقديره: لنريك الكبرى من آياتنا؛ أي: لنريك الآية الكبرى من جملة آياتنا.

قال ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته.<sup>١</sup>

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

قال الله تعالى له: اذهب إلى فرعون فادعه إلى توحيد الله تعالى والإحسان إلى بني إسرائيل فإنه قد جاوز الحد في العصيان، وخص فرعون بالذكر لأنه ادعى الربوبية، فمن دونه تبع له.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١)

وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿١﴾. الآية/  
٣٥ - ٢٥

لما كان شأن الوحي عظيمًا، وخطب الإرسال إلى فرعون جسيمًا، فإنه أعظم ملوك الأرض، وأشدّهم بطشًا، وأكثرهم تجبرًا، سأل موسى ربه تعالى أن يوسع له صدره لتحمل أعباء الرسالة، ومجاهاة فرعون وجنوده، وأن ييسر له الأمر الذي كلفه به.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

خشى موسى عليه السلام أن يصبه الحصر عن الكلام إذا خاطب فرعون وملاه كما كان يحدث له قبل الرسالة من الهيبة، ولعل ذلك لما كان يتصف به من شدة الحياء، فسأل الله تعالى أن يطلق لسانه؛ كما قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٢، ١٣]، وأما ما يقال كان في لسان موسى لثغة من جمرة وضعها في فمه وهو صغير فلا دليل عليه، ولا يليق بمقام الأنبياء عليهم السلام، وأما قول فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يُكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف ٥٢]، فهو باعتبار من كان من أمر موسى عليه السلام، تنفيرًا للناس عنه وصدًا للناس عن دعوته.

﴿وَاجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي﴾.

أي: اجعل لي عونًا وظهيرًا من أهل بيتي، والوزير الذي يعتمد الملك على رأيه في الأمور، ثم عينه فقال: هارون أخي.

﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾.

الأزر الظهر؛ أي: قو ظهري وأعني به، يقال: أزر فلان فلانًا. إذا أعانه وشد ظهره، ومنه: المتزّر؛ لأنه يُشدُّ على الظَّهر.

قال ابن عباس: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾: اشدد به ظهري.

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾.



أي: اجعله يا ربّ شريكاً لي في النبوة، قال العلماء: ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هارون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلًا.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

فيه فضيلة العمل الجماعي؛ فإن التعاون يهيج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايد.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

أي: إنك عالم بأحوالنا وأن التعاون مما يصلحنا، والبصير العالم بخفيات الأمور.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. الآية/ ٣٦ - ٤١

فاستجاب الله تعالى دعاء موسى وقال له: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾، أي: قد أعطيت جميع ما سألت.

قال الأزهري: سُؤْلُ الْإِنْسَانِ: أَمْنِيَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾.

أي: ولقد أنعمنا عليك مرة أخرى قبل هذه المرة.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾.

ثم بين ما أُبْهِمَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ فَقَالَ: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾. أي: حين ألهمناها ما تفعل ليكون سبباً لنجاتك من الذبح عند ولادتك.

﴿أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾.

أن هنا تفسيرية، وهذا تفسير لما أوحاه الله تعالى إلى أم موسى، ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾؛ أي: ألقيه في التابوت وهو الصندوق.

﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾.

فألقي الصندوق وفيه موسى في اليم، ويحتمل أن يعود الضمير على موسى لأنه المراد أصالة بالفعل، والمراد باليم نهر النيل.

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾.

الساحل: هو الشاطئ، وسمي ساحلاً لأن الماء يسحله أي يقشره والصيغة أمر لليم فامتثل أمر الله تعالى وحمله حيث أراد، أي: سخرنا اليم لأن يلقيه بالساحل، والمراد بالساحل هنا الساحل الذي يطلع عليه آل فرعون.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

يعني فرعون، روى أن أم موسى جعلت في التابوت قطناً مخلوجاً، فوضعت فيه وجصصته وقيرته، ثم ألقته في اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينما هو جالس على رأس بركة مع امرأته إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج ففتح، فإذا صبي أصبح الناس وجهاً، فخشيت امرأة فرعون أن يقتله فقالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، فأحبهه وأحبه فرعون حباً شديداً.

قال ابن عباس: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. لا يراك أحد إلا أحبك، لا مؤمن ولا كافر.

﴿وَلْيُصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾.

أي: ولتربي وتغذي على محبتي وما أريد.

قال ابن الأنباري: العين في هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة والاختيار، من قول العرب: غذى فلان على عيني أي على المحبة مني والإشفاق.



﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾.

في الكلام إيجاز بالحذف تقديره: حين تمشي أختك تبتغيك حتى وجدتك، وكانت أمها قالت لها تتبعي أثره، حتى تعلمي من يأخذه، ثم تأتي من يطلب المراضع لك، فتقول: هل أرشدكم على من يضمه ويحوطه ويرضعه؟

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

لما قالت لهم أخته ذلك، قالوا: نعم، وكان لا يقبل ثدي امرأة، فجاءت بالأم فقبل ثديها، قال تعالى: فرددناك إلى أمك كي تفرح بقربك منها وبقائك معها، ولا تحزن على فراقك.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾.

يعني القبطي الذي وكزه ففضى عليه، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾، الذي أصابك بقتل نفس لم يؤمر بقتلها، وعزم آل فرعون على قتله.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾.

أصل الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان، والمراد هنا أثر تلك الفتنة لأن الكلام في معرض الامتحان، أي: وخلصناك من الفتن والحن والشور، يقال فتن الصائغ الذهب والفضة بالنار، إذا خلصهما مما فيهما من الشوائب.

قال مجاهد وسعيد بن جبیر: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾: أخلصناك إحصاءً.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: وفتناك فتونا فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين، يعني الأجل الذي ضرب له صالح مدين مهراً لابنته؛ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْحَيْرَةِ: أَيَّ

الْأَجْلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، حَتَّى أَقْدَمَ عَلَيَّ حَبْرُ الْعَرَبِ فَأَسْأَلُهُ، فَقَدِمْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَالَ فَعَلَّ». ١.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾.

أي: ثم جئت على القدر الذي قدرت لك أنك تجيء إلي فيه.

قال عبد الرحمن بن كيسان: كان على رأس أربعين سنة، وهو القدر الذي يوحي فيه إلى الأنبياء.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

قال القفال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ﴾، أصله من قولهم: اصطنع فلاناً فلاناً إذا أحسن إليه. والمعنى: اخترتُك واصطيفيتُك، وأنعمت عليك بهذه النعم، ومننت عليك هذه المنن؛ اجتباءً مني لك، واختياراً لك لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمرى ونهيي، لئلا تشتغل إلا بما أمرتك به، وهو إقامة حجتي وتبليغ رسالتي.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾. الآية/ ٤٢ - ٤٨

يقول الله تعالى لموسى عليه السلام اذهب أنت وأخوك بحجتي وبراهيني، ومنها العصا واليد ولا تفترا ولا تضعفا، يقال: ونيي ونياً فهو وانٍ؛ أي: فتر، وتواني في الأمر؛ أي: قصر. ﴿فِي ذِكْرِي﴾، أمرهما أمرهما بالإكثار من ذكره تعالى، لتزول هيبة فرعون من قلوبهما.

١ - رواه البخاري-كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، حديث رقم: ٢٦٨٤



﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

أمر الله تعالى أولاً موسى وحده، وهنا أمر موسى وأخاه معاً فلا تكرير.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

أمرهما الله تعالى بالتلطف به واللين له في القول لعله يتعظ فيذعن للحق، فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة، ﴿أَوْ يَخْشَى﴾؛ أي: يخاف عاقبة إعراضه وكفره، مع علمه تعالى أنه لا يستجيب لهما؛ لأنها سنة في الدعوة إلى الله تعالى مع كل إنسان مهما بلغ كفره وجحوده.

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾.

قال موسى وهارون ربنا إننا نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة أو بما يحول بيننا وبين إتمام الدعوة وإظهار المعجزة، والفرط السابق المتقدم، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ». أي: سابقكم عليه. ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾، أي: يزداد طغياناً بأن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جراته وقساوته.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

قال لا تخافا ما توهمتما فعله، إني معكما بتأييدي ونصري، أسمع قوله وأرى فعله، فلا سبيل له عليكما.

قال ابن عباس: أسمع دعاءكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنع.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

إعلاماً له بأنه عبدٌ مملوكٌ، لا كما يزعم من ادعاء الربوبية، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾؛ أي: أطلقهم من أسر الاستعباد، وذل الخدمة.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾.

قد جنناك بحجة بينة وبرهان قاطع من ربك على صدق ما نقول.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾.

في الكلام وعد له بالأمن والسلامة إن آمن واتبع الهدى، ووعد وتهديد بالعذاب إن أصر على كفره، واستمر في طغيانه.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

إنا قد أوحى إلينا من قبل ربك أن العذاب السرمدي على من كذب بآيات الله، ووأدبر معرضاً عن الإيمان بالله تعالى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا حَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى﴾. الآية/ ٤٩ -

٥٩

في الكلام حذف اختصار تقديره: فأتياه فقالا له ما أمرهما به ربهما، وأبلغاه رسالته، فقال فرعون لهما: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾، أفرد الخطاب؛ لأن المخاطب كان موسى دون هارون.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

قال موسى ربنا الذي أعطى كل نوع من الكائنات ما يناسب خلقته من الصورة والهيئة، وهداه إلى ما فيه بقاء نوعه وما يصلحه، من المأكل والمشرب والمنكح.

قال الحسن: أعطى كل شيء ما يصلحه، ثم هداه إليه.



وقال مجاهد: معناه أعطى كل شيء صورة، ثم هداه إلى منفعه من المطعم والمشرب والمنكح.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾.

قال فرعون فما شأن الأمم السابقة، فإنهم كانوا يعبدون الأوثان، يعني: فكيف لم يهتدوا إلى الله الخالق؟ فعارض الحجة بالتقليد.

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾.

لما رأى موسى أن فرعون أريد أن يشغب عليه لخوفه من ظهور حجة موسى أما الملائكة، وأراد صرفه عن ذلك، وشغله بالقصص والحكايات التي لا تعلق لها بوحدانية الله تعالى، قال له موسى هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب وعلم أحوال الفروق مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

يخبر موسى عليه السلام عن صفات الله تعالى الدالة على وحدانية وقدرته فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: جعلها منبسطة ممهدة للعيش عليها، كالمهد الذي يُنام فيه ويُستقرُّ عليه؛ كما قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، أي: بساطاً، والفرش: البسط.

﴿وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾.

أي: وجعل لكم فيها طرقاً بين الأودية والجبال، والمسلك: الطريق.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾.

ومن صفاته تعالى أنه أنزل من السماء المطر، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾، الالتفات من الغيبة للخطاب للتنبيه على كمال قدرته تعالى وعلى عظيم حكمته، وأن كل شيء في الكون يجري بمشيئته، أي: فأخرجنا بهذا المطر ﴿أزواجاً﴾، أي: أصنافاً والأزواج: جمع زوج. وحقيقة

الزوج أنه اسم لكل فرد من اثنين من صنف واحد، فكل أحد منهما هو زوج باعتبار الآخر، ﴿مَنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾، من هنا بيانية أي: أصنافاً مختلفة ومتفرقة من النبات.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: قائلين: كلوا منها وارعوا أنعامكم منها، والأمر للإباحة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾.

أي: إن في ذلك الذي ذكر لدلائل قاطعات، وبراهين ساطعات، على وحدانية الله تعالى وقدرته، وحكمته، ﴿لِّأُولِي النُّهَى﴾، لأصحاب العقول، ونهى جمع نُهْيَةٌ، وهو العقل؛ لأنه ينهى عن القبيح، أو يُنتهى إليه في الأمور.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

أي: من الأرض خلقناكم وفيها نعيدكم بالموت، ومنها نخرجكم تارة أخرى للبعث والنشور.

﴿وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾.

يخبر الله تعالى أنه أرى فرعون دلائل وحدانيته ودلائل قدرته التي أرسل بها موسى عليه السلام، ومنها العصا واليد، فكذب بها فرعون وعصى ربه متكبراً على أمره، وأبى أن يقبلها، وقد أراه الله كل الآيات من حين أتاه موسى إلى حين أغرقه الله تعالى فما ازداد إلا كفرة وإعراضاً.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾.

في الكلام حذف إيجاز، وقد ذكر بتمامه في سورة الشعراء، فإن فرعون حين عجز عن رد الأدلة العقلية على وحدانية الله تعالى قال لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٢٩ - ٣٤]، فلما رأى العصا قد انقلبت حية، ورأى يد موسى



بيضاء للناظرين، قال لموسى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾، يعني: مصر، ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾. تَعَلَّلَ بِالسِّحْرِ، من فرط دهشته وخوفه مما رآه، وقد علم يقيناً أن ما جاء موسى ليس من السحر في شيء، لكنه العناد والاستكبار والأنفة من الانقياد للحق؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾<sup>١</sup>.  
﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾.

فلنعارضنك بسحرٍ مثل سحرِكَ ليتبين للناس أن ما أتيتَ به ليس من عند الله.

﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

أي: فاجعل بيننا وبينك وعدًا لا نخلفه نحن ولا أنت ليوم نجتمع فيه ﴿مَكَانًا سُوًى﴾. أي: مناسب لنا ولك. قال ابن زيد: مكانًا مستويًا يتبين الناس ما فيه.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾.

قال موسى: الوقت الموعود يومُ الزينة، وهو يومٌ معروف كان لهم يتزيتون فيه، وإنما وعدهم ذلك اليومَ ليكونَ ظهور الحَقِّ على رؤوس الأشهاد.

﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

وأن يجمع الناس وقت الضحى لأنه وقت نشاط الناس، وليكون الأمر أوضح وأظهر لهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى (٦٣) فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى

(٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى. الآية/ ٦٠ - ٦٩

فأعرض فرعون عن قبول الحق الذي أتى به موسى، ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾، فجمع سحرته، ثم أتى للموعد الذي ضرب له موسى عليه السلام.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾.

قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون: ﴿وَيْلَكُمْ﴾، كلمة زجر ووعيد، ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، بزعمكم أنكم تعارضون آيات الله تعالى بسحركم، ﴿فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾. فيستأصلكم بعذاب شديد، ونكر العذاب للتعظيم والتهويل، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾، أي: وقد خاب من افتري على الله الكذب.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾.

يطلق التنازع ويراد به التشاور؛ لأن بعضهم يأخذ القول من بعض؛ كما قال: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف: ٢١]، قال ابن عباس: يريد فتشاوروا بينهم.

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾.

أي: أحفوا حديثهم لئلا يسمعه غيرهم.

﴿قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾.

لما تنازع السحرة أمرهم بينهم كان ما أسروه من النجوى هو قولهم: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ...﴾، وإنما قالوا ذلك خشية أن يغلبوا أمام الملاء، فقالوا إن موسى وهارون ساحران يريدان إخراجكم من أرضكم بسحرهما، وقد ورد في قوله: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، عدة قراءات متواترة، فقرأ حفص: ﴿إِنَّ هَذَانِ﴾، بتخفيف نون ﴿إِنَّ﴾، و ﴿هَذَانِ﴾، بالألف بعدها نون خفيفة.

وقرأ ابن كثير مثل قراءة حفص إلا أنه شدد النون من هذان ﴿إِنَّ هَذَانِ﴾.



وقرأ أبو عمرو: (إِنَّ) بتشديد النون، وهذين بالياء ﴿إِنَّ هَذِينَ﴾.

وقرأ الباقر وهم: نافع، وابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف العاشر ﴿إِنَّ﴾، بتشديد النون وهذان بالألف ﴿إِنَّ هَذَانِ﴾، وهي لغة بني الحارث بن كعب، يلزمون المتنى الألف في كل حال، وكلها قراءات متواترة ولكل قراءة وجه في اللغة، ولا يجوز رد شيء من تلك القراءات أو الطعن فيها.

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾.

أي: ويذهبا بدينكم وشريعتكم الفضلى، والمثلى تأنيث الأمثل، وهو الأفضل والأعدل.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾.

قوله: ﴿فَأَجْمِعُوا﴾، من الإجماع وهو العزم والإحكام، وفي الحديث: «لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ قَبْلَ الْفَجْرِ»؛ أي: لمن لم يعزم عليه، ومنه قول الشاعر:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمَنَى لَا تَنْفَعُ \*\*\*\*\* هَلْ أَغْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ

والمعنى: فأحكموا ما تكيّدون به موسى، واعزموا كلكم على كيده مجتمعين له، ولا تختلفوا فيختل أمركم.

وقرأ أبو عمرو ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾، بهمزة الوصل وفتح الميم، من الجمع، ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه: ٦٠]، ومعناه: لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلا جتتم به، والمراد بالكيد: سحرهم، ومكرهم.

﴿ثُمَّ اتُّوَا صَفًّا﴾.

أي: مصطفين لأنه أهيّب في صدور الرائيين.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾.

أي: وقد فاز بالفلاح والبقاء من كانت له الغلبة.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾.

قال السحرة: يا موسى إما أن تلقي عصاك، وإما أن نكون نحن أول من ألقى الحبال والعصي.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

قال لهم موسى: بل ألقوا أنتم أولاً، وفي الكلام حذف اختصار تقديره: فألقوا حبالهم وعصيهم، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل لموسى من سحرهم أنها تسعى، وهذا النوع من السحر هو الذي يقال له: سحر التخيل، وسحروا أعين الناس، فرأوا الأرض قد امتلأت بالحيات، ورأوا أنها تسعى، فألقوا في قلوبهم الخوف والرهبة.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾.

الإيجاس: من الهاجس الذي يخطر بالبال؛ أي: فأحس موسى في نفسه خوفاً من هول المفاجأة مما رآه من سعي الحيات، وظن أنها تقصده، وقد وصف الله تعالى سحرهم بأنه سحر عظيم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وهو خوف جبلي ولكن موسى أضمره ولم يظهره.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.

يعني مما توهمت فليس له حقيقة، فلا يهولنك ما رأيت من سحرهم، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، عليهم بالظفر والغلبة.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾.

أي: وألق عصاك، ﴿تَلْقَفْ﴾، تحتطف عصيهم وحبالهم وتبلعها فلا تترك منها شيئاً، ﴿مَا صَنَعُوا﴾، الذي اختلقوه وزوروه والعرب تقول في الكذب: هو كلام مصنوع.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.



إنما للحصر؛ أي: ما الذي اختلقوه إلا حيلة ساحر، ووحد السَّاحِرَ لأنَّ المراد به الجنس، والتَّنْكِيرُ في لفظ: ﴿سَاحِرٍ﴾، للتَّحْقِيرِ.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

أي: ولا يسعد هذا الجنسُ ولا يفوز؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]؛ ﴿حَيْثُ أَتَى﴾؛ أي: مهما فعل، وقيل: حيث كان.

قال ابن عباس: ولا يسعد الساحر حيث ما كان.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾. الآية/ ٧٠-٧٦

في الكلام حذف اختصار تقديره: فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا، فألقى السحرة سجداً قالوا: آمنا برب هارون وموسى.

بما علم السحرة أن ما جاء به موسى ليس سحراً خروا عند ذلك سجداً إيماناً بالله تعالى، قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا.

قال عكرمة: لما خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

أي: قالوا آمنا بإله هارون وموسى، وقدم هارون على موسى مراعاة للفاصلة.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

بلغ من كبر فرعون أنه توهم أنه لا يجوز أن يُعتقد ديناً إلا بإذنه؛ كما قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾<sup>١</sup>.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

أي: إنه لرئيسكم ومعلمكم الذي علمكم السحر.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾.

اللام هي الموطئة للقسم؛ أي أقسم لأقطنَنَّ ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾.

قيل: في بمعنى على، أي: ولأصلببكم على جذوع النخل، قال الشاعر:

هُمُ صَلَّبُوا الْعَبْدِيَّ فِي جِذَعِ نَخْلَةٍ \*\*\*\*\*  
فَلا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا

يعني: على جذع نخلة.

والأولى أن يقال: هذا من باب التضمين، عدي فعل: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، ب (في) والاصل أن يعدي ب (على) لأنه ضمن معنى الإدخال، كأنه قال: لأصلببكم داخلين في جذوع النخل، مبالغة في الشد، وصيغة التفعيل في الفعلين للمبالغة.

قيل: كان فرعون أول من قطع الأيدي والأرجل من خلافٍ، وأول مَنْ صَلَّبَ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ.

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَّا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾.

أي: ولتعلمن أيها السحرة أننا أشد عذاباً لكم وأدوم، أنا أو رب موسى.



﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾.

قال السحرة لفرعون لما توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف والصلب في جذوع النخل: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أي: لن نفضلك ولن نختارك ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: الدلائل القاطعات على صدق موسى وهارون، ووحدانية الله تعالى.

قال ابن عباس: يريد من اليقين والعلم.

﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾.

يحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات، فيكون المعنى: لن نُؤْثِرَكَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي خَلَقْنَا، ويحتمل أن يكون قسماً، فيكون المعنى: نقسم بالله الذي فطرنا لن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِمَّا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

فاصنع ما أنت صانع، واعمل بنا ما بدا لك، من القتل والصلب، إنما قضاؤك وحكمك في هذه الحياة الدنيا وهي زائلة، ونحن آثرنا دار البقاء، والنعيم الذي لا يزول.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

أي: إننا آمنا بربنا الذي خلقنا ليغفر لنا ما كان منا من الآثام، وما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آيات الله تعالى ودلائل وحدانيته، والمعجزات الدالة على صدق نبيه.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

قال السحرة لفرعون حتى توعدهم: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾؛ أي: كافرًا والكفر أعظم جريمة يعملها العبد، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾، مؤثلاً ومصيراً، ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾، لا يموت فيها فيستريح من العذاب، ولا يحيى فيها حياة ينتفع بها.

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾.

ومن يقدم على ربه مؤمناً به، موحداً له، وكان قد عمل الصالحات، فمن كان هذا شأنه فلهم الدرجات العلى عند الله تعالى، جزاء إيمانهم به وطاعتهم له.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾.

لما كانت الدرجات العلى مبهمّة، فسر هنا تلك الدرجات العلى فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: لهم جنات اسمها جنات عدن، ويحتمل أن يكون مجموع الجنات لمجموع المؤمنين، ويحتمل أن يكون لكل مؤمن جنات؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وحديث الربيع أم حارثة، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾، تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، ماكنين فيها أبداً، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾، وذلك الجزاء جزاء من تطهر من الشرك والآثام.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾. الآية/ ٧٧ - ٨٢

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، أي: سر بهم ليلاً من أرض مصر، وذلك بعد أن تابعت الآيات إلى فرعون وقومه كل آية أكبر من أختها، فما زادهم إلا طغياناً وعتواً، وذلك أن الله تعالى أراد أن يهلك فرعون وجنوده.

﴿فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾.

أي: فاتخذ لهم طريقاً في البحر يابساً، قال مجاهد: يَبَساً يَابِساً.

واليبس واليابس: الجاف الذي لا نداوة فيه ولا بلل.

﴿لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾.



لا تخاف أن يدركك فرعون ومن معه من خلفك، ولا تخشى الغرق أمامك.

قرأ حمزة: ﴿لَا تَخَفْ دَرْكًا﴾، مجزومًا على النهي، ﴿وَلَا تَخْشَى﴾، بالرفع على الاستئناف؛ أي وأنت لا تخشى.

وقرأ الباقون: ﴿لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾، على أنها حال من الضمير في ﴿فَاصْرَبْ﴾؛ أي: غير خائف ولا خاش.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

أي: فاتبعهم فرعون بجنوده، ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ فعلاهم وسترهم من اليم ما لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل، والإيهام فيها للتحويل مما حل بهم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾.

حيث دعاهم إلى عبادته فأطاعوه، وما هدى أحدًا، كما زعم بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾<sup>١</sup>.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أهلك الله تعالى فرعون وجنوده، ونجى موسى وبني إسرائيل، ذكر فضله ومنته عليهم فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾، يعني فرعون، وأغرقهم أمام أعينهم ليشفي صدورهم منه؛ كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾.

١ - سورة غافر: الآية/ ٢٩

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٥٠

قد كانت المواعد لموسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، وأخبر هنا أنه واعدهم؛ لأن المواعدة لابستهم، ورجعت منافعها إليهم؛ لأنها كانت لإنزال التوراة، وتقدم الكلام على الآية في سورة البقرة.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

أي: وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم.

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾.

أي: فيما رزقناكم، بأن تتعدوا فيه حدود الله، وتخالفوا أمره، وتستعملوا نعمه فيما يسخطه، فينزل عليكم غضبي.

﴿وَمَنْ يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾.

ومن ينزل عليه غضبي فقد هلك.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

أي: وإني لواسع المغفرة لمن تاب عن الشرك وآمن بالله تعالى ووحده، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، امثل أمر الله، واجتنب نهيه، ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾. ثم استقام على أمر الله تعالى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْفَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ هُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾. الآية/ ٨٣ - ٨٩



لما نجي الله تعالى موسى وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر، وعده الله تعالى جانب الطور الأيمن أربعين ليلة، فتعجل موسى وحده مبادراً إلى أمر الله تعالى، شوقاً إلى مناجاته، فاستخلف هارون على بني إسرائيل وقال لهم موسى تسيرون إلى جانب الطور، فسار بهم هارون على أثر موسى، فلما كلمه الله تعالى سألَهُ وهو أعلم عن سبب استعجاله ليخبره بما صنع قومه، فقال: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾؛ يعني: أي شيء أعجلك ﴿عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ فتقدمتهم وخلفتهم وراءك، ولم تكن معهم.

﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.

أي: هم بالقرب مني يأتون ﴿عَلَى أَثْرِي﴾؛ أي: من بعدي فيلحقون بي، وعجلت إليك يارب لتزداد رضى عني.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

أي: فإننا قد اختبرنا قومك من بعد فراقك وامتحانهم، ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، فصرفهم عن عبادة الله إلى عبادة العجل، ونسب الضلال له لأنه سببه.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾.

فرج موسى إلى قومه وقد اشتد غضبه، بما صنعوه من عبادة العجل، والأسف: شدة الغضب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، يعني: أغضبونا.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَمْ يَعِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾.

أي: قال لهم موسى: أليس قد وعدكم ربكم على لساني بالنجاة من آل فرعون، والفوز بالجنة لمن آمن منكم.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾.

أي: أي: أفضال عليكم الزمان، وتأخر الموعد فنسيتم وعد ربكم.

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾.

أم أردتم أن ينزل عليكم غضب من ربكم بعبادتكم غيره، ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾، وكانوا قد وعدوهم إذا نجاهم الله أن يستقيموا على أمر الله تعالى.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾.

أي: قالوا ما أخلفنا الذي وعدناك بإرادتنا واختيارنا.

﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾.

ولكننا حملنا أحمالا من حلي القبط يعنون وآل فرعون قبل خروجنا من مصر، وورد في ﴿حَمَلْنَا﴾، قراءتان متواترتان: الأولى قراءة أبي جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر، وحفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب ﴿حَمَلْنَا﴾، بضم الحاء وكسر الميم المشددة. وقرأ أبو عمرو، شعبة عن عاصم، وحمزة والكسائي وخلف، وروح عن يعقوب: ﴿حَمَلْنَا﴾، بفتح الحاء والميم المخففة؛ على قراءة التشديد قيل أمرهم الله تعالى بذلك على لسان موسى عليه السلام.

وقيل أرادوا بالأوزار أثمًا وتبعات؛ لأنهم قد استعاروها منهم ليلة الخروج من مصر، وهذا من الورع الكاذب.

﴿فَقَذَفْنَا فِي النَّارِ كَذِبَ السَّامِرِيِّ﴾.

يعني في نار السامري التي أوقدها وأمرنا أن نطرح فيها الحلي، فكما قذفنا نحن تلك الحلي، فكذلك ألقى السامري ما كان معه من الحلي.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِي﴾.

أي: فأخرج السامري لبني إسرائيل ﴿عِجْلًا﴾، وهو ولد البقرة، مجسداً له صوت كصوت العجل، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِي﴾، فقال السامري من وافقه من بني إسرائيل: هذا إلهكم وإله موسى الذي يجب أن تعبدوه، فنسي أنه هو وفضل عنه فذهب يطلبه في موضع آخر.



﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: أفلا يرى أولئك الذين عبدوا العجل أنه لا يستجيب لهم إذا دعوه، ولا يرد عليهم إذا خاطبوه، ولا يقدر على نفعهم أو ضرهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بَنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَن تَرَقَّبْتُ قَوْلِي﴾. الآية/ ٩٠ - ٩٤

يقول الله تعالى: ولقد قال هارون للذين عبدوا العجل مستعظفاً لهم، من قبل رجوع موسى إليهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾، أي: إنما جعل الله تعالى هذا العجل فتنة لكم يختبر به صدق إيمانكم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

وإن ربكم الذي خلقكم من العدم، وأسبغ عليكم نعمه، هو الرحمن الذي يستحق العبادة، فاتبعوني فيما ما أمركم به من عبادة الله وترك عبادة العجل، وأطيعوا أمري في الثبات على الدين الحق.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.

قال عبدة العجل لهارون: لن نزال على العجل مقيمين نعبده حتى يرجع إلينا موسى.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾.

في الكلام حذف اختصار دل عليه ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، قال موسى: يا هارون ما منعك أن تنكر عليهم حين رأيتهم كفروا بعبادة العجل، فقاتلتهم بمن معك ممن أقام على توحيد الله؟

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.

ألست تتبعني في وصيتي إذ قلت لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، يعني هلاً قاتلتهم، وقد علمت أيّ لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم، فهل عصيت أمري بإقرارهم على عبادة العجل؟

وقيل: المراد: ما منعك من اتباعي بمن أطاعك والحق بي وترك المقام بين أظهرهم.

﴿قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾.

كان هارون أخاً لموسى من أبيه وأمه، وإنما اقتصر على ذكر الأم لما عندها من الشفقة والرقّة، ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾؛ أي: لا تأخذ ببشعر لحيتي ولا بشعر رأسي؛ لما في ذلك من الإهانة لي أمام بني إسرائيل؛ كما قال: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾<sup>١</sup>.

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

ثم ذكر عذره فقال: إني خشيت إن قاتلتُ بمن آمن من كفر منهم، أو فارقتهم بمن ثبت على التوحيد، أن تقول فرقت بين بني إسرائيل وكانوا مجتمعين، ولم تنتظر رأي فيهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنْ نَسْفَنَّهُ فِي الْيَوْمِ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا. الآية/ ٩٥ - ٩٩

الخطب: الشأن؛ قال الليث: الخطب سبب الأمر.

تقول: ما خطبك؟ أي: ما أمرك؟ وتقول: هذا خطب جليل وخطب يسير.<sup>٢</sup>

قال موسى: فما شأنك يا سامري، وما الذي دعاك إلى ما فعلته.

١ - سورة الأعراف: الآية/ ١٥٠

٢ - تهذيب اللغة (٧/ ١١١)



﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾.

قال: علمت بما لم يعلموا به، يعني بني إسرائيل، و ﴿بَصُرْتُ﴾؛ أي: صرْتُ بصيراً؛ أي: عليماً.

وقيل: ﴿بَصُرْتُ﴾ من بَصَرَ العين، يقال بصر، وأبصر؛ أي: رأيت ما لم تروه.

قرأ حمزة والكسائي وخلف بقاء الخطاب يخاطبُ به موسى وقومه، وقرأ الباقون بياء الغيبة، يعني: بني إسرائيل.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾.

قال مجاهد: من تحت حافرِ فرس جبريل، فنَبَذَهُ السامريُّ على حلية بني إسرائيل، فانسبك عَجْلاً جَسَدًا له حُوَازٌ، حفيفُ الريح فيه فهو حُوَازُهُ.

والمراد بالرسول جبريل عليه السلام، وأراد بأثره التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته لما رآه يوم فلق البحر.

وقال أبو مسلم الأصفهاني: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾. أي: عرفت ما لم يعرفه القوم ولم تعرفه أنت، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق.

وقوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾؛ أي: وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول؛ أي شيئاً من سنتك ودينك فطرحته، كما يقال: فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمثل رسمه، ويتبع طريقته، وأجرى الكلام على طريق الغيبة وهو يخاطبه على نهج قول الرجل لرئيسه وهو مواجه له: ما يقول الأمير في كذا وبماذا يأمر الأمير؟

قال الفخر الرازي: واعلم أن هذا القول الذي ذكره أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجه.

أحدها: أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر.

وثانيها: أنه لا بد فيه من الإضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والإضمار خلاف الأصل.

وثالثها: أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر.

ورابعها: أنه لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول: فلعل موسى عليه السلام اطلع على شيء آخر يشبه ذلك فلاجله أتى بالمعجزات وحيثذ ينسد باب المعجزات بالكلية.<sup>١</sup>

والتَّبْدُ: طرْحُ الشَّيْءِ عَنِ الْيَدِ خَاصَّةً.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾.

أي: وكذلك زَيَّنْتُ لِي نَفْسِي أَنْ أَفْعَلَهُ ففَعَلْتُهُ اتِّبَاعًا لِهَوَايَ.

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾.

فقال له موسى: فَإِنْ عَقُوبَتِكَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَقُولَ: ﴿لَا مِسَاسَ﴾، أي: تبقى منبوذًا لا تماسَّ الناس ولا بمسونك.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ﴾.

أي: وإن لك يوم القيامة موعداً لا محيد لك عنه، ولا فرار لك منه.

﴿وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾.

وانظرُ إلى معبودك ﴿الَّذِي ظَلْتَ﴾، أي: الذي أقمت، أصله ظللت فحذف اللام الأولى تخفيفاً، ﴿عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ تعبده.

﴿لُنَحْرِقَنَّه﴾. قال ابن عباس قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾. قال: أقمت، ﴿لُنَحْرِقَنَّه﴾، قال: بالنار.

١ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٢ / ٩٥)، بتصرف.



﴿ثُمَّ لَنَسْفَعَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفَاعًا﴾، أي: لندريته رمادًا في البحر، من نسف الطعام: إذا ذراه لتطير منه قشوره.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

إنما إلهكم الحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له الله، الذي لا معبود بحق سواه.

﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

وسع علمه كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾. الآية/ ٩٩ - ١٠٤

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: كما قصصنا عليك يا محمد نبأ موسى وقومه، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾. من أخبار ما قد سبق من الأمم الغابرة.

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

أي: وقد آتيناك قرآنًا حقيقًا بالتفكير والاعتبار، وسمي القرآن ذكرًا؛ لأنه شرف لم تمسك به؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي: وإنه لشرف لك ولقومك؛ وأيضًا لأنه موعظة وذكرى للمؤمنين.

والتنكير فيه للتعظيم، وتقديم ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾. للتخصيص؛ أي: ذكرًا عظيمًا لا ينبغي أن يكون إلا من عندنا.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾.

أي: من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به، فإن يحمل حملًا ثقیلاً، وإنما عظيمًا بكفره بالقرآن.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾.

أي: خالدين في عذاب ذلك الوزر، وبئس ما حملوا على أنفسهم يوم القيامة من الآثام بكفرهم بالقرآن.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾.

بدل من يوم القيامة؛ أي: لهم ذلك العذاب يوم القيامة الذي من أهواله النفخ في الصور.

قرأ أبو عمرو: (ننفخ) بنون مفتوحة وضم الفاء إخبارًا عن الله تعالى، على إسناد النفخ إلى الأمر تعظيمًا لأمر النفخ.

وقرأ الباقون بالياء المضمومة وفتح الفاء على البناء للمفعول تحويلًا له.

والصور هو القرن، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ» فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»<sup>١</sup>.

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

أي: ونحشر الكافرين في ذلك اليوم زُرْقَ العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

قال ابن عباس: يتسارون بينهم. أي: يقول بعضهم لبعض سرًّا هول مطلع ذلك اليوم: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، إن نافية؛ أي: ما كان لبثكم في الدنيا إلا عشرة أيام، عذب عنهم قدر المدة التي لبثوها لما عاينوه من الأهوال.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

١ - رواه الترمذي - أبواب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في شأن الصور، حديث رقم: ٢٤٣١، بسند صحيح



يقول الله تعالى: نحن أعلم بما يقولونه عن تقدير مدة لبثهم في الدنيا، إذ يقولهم أسدهم رأياً، وأرجحهم عقلاً: ما لبثتم في الدنيا إلا يوماً واحداً؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣]، وإنما قال الله تعالى: ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾؛ لأنه أشد احتقاراً لمدة الدنيا، وسرعة تقضيها.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.  
الآية/ ١٠٥ - ١٠٩

#### مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى يوم القيامة وما فيه من الأهوال، وذكر البعث والنشور، ذكر الله تعالى شيئاً من الأهوال التي تكون في ذلك اليوم، وهو قلع الجبال وتسييرها من أماكنها، ونسفها نسفاً حتى تصير كالعهن المنفوش، لاسيما وقد كان المشركون يسألون عن حالها يوم القيامة سؤال متعنت لا سؤال مسترشد.

يقول الله تعالى: ويسألك قومكم يا محمد عن الجبال، ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾؛ أي: فقل يقلعها ربي من أصولها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾؛ أي: قُلِعَتْ من أصولها، ويذريها تذرية، وهو تصييرها هباءً منثوراً؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾<sup>١</sup>.

وهذا السؤال أخبر الله تعالى أنه كائن منهم على السبيل التعنت فقال: سيسألونك عن الجبال: ما يصنع الله بها في هذا اليوم؛ كذلك قال الحسن: إن مشركي العرب سألوا النبي صلى الله عليه وسلم

فقالوا: فكيف هذه الجبال في اليوم الذي تذكر؟ فنزلت الآية: ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾، ولذلك أجب بالفاء، وتقديره: إذا سألك فقل.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾.

فيذر أماكنها قاعًا، أي: أرضًا ملساء ﴿صَفْصَفًا﴾، أي: مستويًا لا نبات فيها، ولا حجارة ولا حصي.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾.

أي: لا ترى في الأرض اعوجاجًا ﴿وَلَا أَمْتًا﴾؛ الأمتُ التُّوُّ اليسير يقال: مَدَّ حَبْلَهُ حَتَّى مَا فِيهِ أَمْتٌ؛ أي: ولا تفاوتًا بارتفاع وانخفاض، وقيل: الأمت: غلظٌ موضعٍ وسهولةٌ موضعٍ، فلا ترى فيها يومئذ واديًا ولا راوية.

قال الحسن: العوج ما انخفض من الأرض، والأمت ما نشز من الروابي.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

يوم تكون هذه الأهوال، يتبع الناس داعي الله عز وجل إلى المحشر وهو إسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) حُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦ - ٨]، فيقبلون من كل أوبٍ إلى صوبه.

قال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوي السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فيتبع الناس الصوت فيأتونه فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.



وَسَكَتُ أَصْوَاتِ الْخَلَائِقِ لِلرَّحْمَنِ، وَصَفَ الْأَصْوَاتَ بِالْخَشْوَعِ، وَالْمُرَادُ أَهْلَهَا لِحُضُوعِهِمْ يَوْمَئِذٍ لِرَبِّهِمْ، فَلَا تَسْمَعُ لِنَاطِقٍ مِنْهُمْ مَنطِقًا ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا وَطْءَ الْأَقْدَامِ إِلَى الْمَحْشَرِ، وَأَصْلُ الْهَمْسِ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ، يُقَالُ: هَمَسَ فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ بِحَدِيثِهِ. إِذَا أَسْرَهُ إِلَيْهِ وَأَخْفَاهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: يَعْنِي هَمَسَ الْأَقْدَامِ، وَهُوَ الْوَطْءُ.<sup>١</sup>

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا شَفَاعَةَ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ أَنْ يَشْفَعَ وَرَضِيَ لَهُ مَا يَقُولُهُ مِنَ الشَّفَاعَةِ، بِأَنْ تَكُونَ شَفَاعَتُهُ لِمَنْ يَجُوزُ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ.

وَالشَّفَاعَةُ الْمَثْبُتَةُ لَهَا شَرْطَانِ: الْأَوَّلُ: إِذْنُ اللَّهِ تَعَالَى لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ؛ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَالثَّانِي: رِضَى اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الْمَشْفُوعِ فِيهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وَجَمَعَ الشَّرْطَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ هِيَ الَّتِي فَقَدَ فِيهَا الشَّرْطَانِ أَوْ أَحَدَهُمَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (١١٠) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا. الآية/ ١١٠ - ١١٤

أي: يعلمُ اللهُ تعالى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني: ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي يوم القيامة، وما الذي يصيرون إليه من الثواب والعقاب، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. أي: ويعلمُ ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا.

قال ابن عباس: يريد ما قدموا وما خلفوا.

وقال الكلبي: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

أي: ولا يحيطُ خلقُه به سبحانه وتعالى علمًا، ولا يحيطون بشيء من علمه تعالى؛ كما قال تعالى:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. ١

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

يقول اللهُ تعالى: وخضعتُ وجوه الخلائق وذلتُ للحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام.

وقيل: المراد بالوجوه وجوه العصاة، وأنهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة اسودت وجوههم، كما قال

تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ

وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾. ٢

قال الزجاج: معنى عنت في اللغة: خضعت، وسمي الأسير عانيًا لخضوعه في يد من أسره. ٣

وخصَّ الوجوه لأنَّ آثار الدُّلِّ تظهر فيها أكثر من غيرها.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٥٥

٢ - سورة القيامة: الآية/ ٢٤

٣ - التفسير الوسيط للواحدى (٢٢٢/٣)



جملة اعتراضية، ومعناها: وقد خاب وخسر من أشرك بالله تعالى شيئاً، والمراد بالظلم هنا الشرك.

قال ابن عباس: خسر من أشرك بالله.<sup>١</sup>

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ، بأداء الفرائض والإكثار من النوافل، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وهو مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وفيه احتراس عن غير المؤمن؛ لأن غير المؤمن لا يقبل عمله، ولا يكون صالحاً، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾، فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه من سيئات غيره، فيعاقبه عليها، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾، ولا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَزِيغَ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، أي: ولن يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها.

قال ابن عباس: لا يخاف أن يظلم فيزداد عليه في سيئاته، ولا أن يهضم من حسناته.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

عطف على قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [الآية: ٩٩]؛ أي: ومثل ذلك الذي قصصناه عليك من أنباء الأولين، أنزلنا عليك القرآن بلسانٍ عربي مبين.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾.

ويئناً فيه ضروب الوعيد، قال قتادة: يعني وقائعه في الأمم المكذبة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

لعلهم يتعظون بمن قبلهم فيتقوا الشرك بالله الذي كان سبب هلاك الأمم الغابرة.

﴿أَوْ يُحَدِّثُ هُمْ ذِكْرًا﴾.

أو يجدد لهم القرآن تذكراً واتعاضاً، فيتذكروا به عقاب الله للأمم الغابرة فيعتبروا به.

١ - التفسير الوسيط للواحدى (٣/ ٢٢٢)

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

أي: تنزه وتقدس الله تعالى عن إحداد الملحددين، ومزاعم المشركين، وأوهام الأنام أجمعين، فهو الملك الحق، والمعبود بحق، وكل ملك خاضع لجبروته، تحت قهره وسلطانه.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: لا تعجل يا محمد بقراءة القرآن قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من قراءته عليك، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى أن ينسى شيئاً من القرآن فكان يحرك لسانه بما يسمعه من جبريل عليه السلام خشية النسيان فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ<sup>١</sup>.

وروى البخاري عن ابن عباس، «في قوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحْرِكُ شَفْتَيْهِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحْرِكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْرِكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحْرِكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحْرِكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفْتَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ \* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، قال: جَمْعُهُ لَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأُهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، قَالَ فَاسْتَمِعَ لَهُ وَأَنْصَتُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَنَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَرَأَهُ»<sup>٢</sup>.

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

يقول الله تعالى له: وقل يا محمد: رب زدني علماً إلى ما علّمتني.

١ - سورة القيامة: الآية/ ١٦ - ١٩

٢ - رواه البخاري - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٥



وفي الآية بيان شرف العلم وفضله فإن الله تعالى ما أمر رسوله بطلب الزيادة من شيء إلا من العلم، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية، يقول: اللهم زدني علماً وإيماناً و يقيناً.

قال ابن عُيَيْنَةَ، رحمه الله: ولم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيٍّ وَمَنْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾. الآية/ ١١٥ - ١١٩

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى تفريط بني إسرائيل في عهد الله حين عبدوا العجل وقال لهم موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦]، ذكر الله تعالى صورة أخرى من صور التفريط في العهد ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيٍّ وَمَنْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، وأن ذلك التفريط كان من عمل الشيطان؛ ليحذر الناس مكايده وشروره.

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيٍّ وَمَنْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

يقول الله تعالى أقسم لقد عهدنا إلى آدم من قبل فَنَسِيٍّ ولم نجد له عزمًا، يخبر الله تعالى أنه عهد إلى آدم عليه السلام ألا يطيع إبليس وأن يظل على حذر منه لشدة عداوته له ولذريته من بعده، وقد بين الله تعالى ذلك العهد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]، فَنَسِيٍّ آدم عليه السلام عهد الله تعالى إليه، والمراد بالنسيان هنا الترك، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، فأسند إليه النسيان والعصيان معًا. قال ابن عباس ومجاهد: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيٍّ﴾: ترك أمر الله.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

أي: ولم نجد له ثباتاً على العهد، والعزم هو: توطين النفس على الفعل، أي: ولم يكن له عزم في مصارمة هذا العدو، ولو كان له عزمٌ ما أطاع عدوه الذي حسده، وأبى أن يسجد له مع من سجد له.

قال أبو بكر ابن العربي: البارئ سبحانه وتعالى بحكمه النافذ، وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة، فوقع فيها متعمداً ناسياً، ف قيل في تعمده: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وقيل في بيان عذره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسِي﴾. ونظيره من التمثيلات أن يحلف الرجل لا يدخل داراً أبداً، فيدخلها متعمداً ناسياً ليمينه، أو مخطئاً في تأويله، فهو عامد ناس، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان، وجاز للمولى أن يقول في عبده: عصى تحقيراً وتعذيراً، ويعود عليه بفضلته فيقول: نسي تنزيهاً، ولا يجوز لأحد منا أن يخبر بذلك عن آدم، إلا إذا ذكرناه في أثناء قول الله عنه، أو قول نبيه. وأما أن نبتدئ في ذلك من قبل أنفسنا فليس بجائز لنا في آبائنا الأذنين إلينا، المماثلين لنا، فكيف بأبينا الأقدم الأعظم، النبي المقدم، الذي عذره الله، وتاب عليه، وغفر له.<sup>١</sup>

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

يقول الله تعالى: واذكر قولنا للملائكة اسجدوا لآدم، وإباء إبليس، وتحذيرنا آدم من عداوة إبليس وكيدته، حتى يتبين لك أنه نسي ولم يكن ذا عزيمة وثبات، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وسورة الأعراف.

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.

يخبر الله تعالى أنه حذر آدم عليه السلام من عداوة إبليس، وأعاد الجأز للدلالة على أن عداوته لها أيضاً أصالةً، لا تبعاً لزوجها.<sup>٢</sup>

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

١ - أحكام القرآن لابن العربي (٢٥٩ / ٣)

٢ - تفسير ابن كمال باشا (٤٩٨ / ٦)



خصَّ اللهُ تعالى آدمَ بإسنادِ الشَّقَاءِ إليه بعدَ إشراكهما في الخروجِ مِنَ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ شِقَاءَهُ مُسْتَلْزِمٌ لِشِقَاءِ زَوْجِهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالشَّقَاءِ: التَّعَبُ فِي طَلْبِ الْمَعَاشِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ الرَّجُلُ.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾.

بيان لما في الجنة من النعيم ورجد العيش؛ كما قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، ﴿وَلَا تَعْرَى﴾، لما أسبل الله تعالى عليهما من الستر في الجنة، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سواءتهما.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾.

أي: لا تعطش في الجنة ما دُمتَ فيها؛ لما فيها من ملاذ الشراب، ﴿وَلَا تَصْحَى﴾، أي: ولا تظهر للشمس فيؤذيك حرها؛ كما قال عمر بن أبي ربيعة:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت \*\*\*\*\* فيضحى وأما بالعشي فيخصر

وذلك لأن ظلَّ الجنة ممدود فلا شمسَ فيها ولا زمهرير.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يُؤْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾. الآية/ ١٢٠-١٢٦

الوسوسة: الصوتُ الخفي. يقال: وسوس الرجل: إذا تكلم بكلام خفي يكرره.

يقول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾، أي: فحدثه الشيطان وأنهى إليه، ويعدى الفعل: وسوس باللام كما في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، أي: لأجلهما، وعدي هنا بـ إلى لتضمنه معنى: أنهى فيكون المعنى: فأخى إليه الوسوسة، كقولك: أسر إليه.

﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾.

هذا تفسير لما أجهم من الوسوسة، ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، أضاف الشجرة إلى الخلد، زعم أن من أكل منها يخلد ولا يموت، ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾، أي: ومملك لا يفنى ولا يزول.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

فأكل آدم وحواء من الشجرة فانكشفت عورتهم، وكانا لا يريانها.

﴿وَوَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْنِهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

أي: وجعلا يضمنان ويلصقانه بعورتهم ليستترا به، يقال: طفق يفعل كذا، إذا جعل يفعل، ويخصفان أي: يضمنان ورق الجنة بعضه إلى بعض على عورتهم.

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.

العصيان: وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهي، وخالف آدم أمر ربه، بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، ﴿فَغَوَى﴾؛ أي: فتعدى إلى شيء لم يكن له أن يتعدى إليه.

ولا يحل لأحد أن يقول عن آدم عليه السلام: عاص، ولا غاؤ، لأنه لا يقال عاصٍ وعاؤٍ إلا لمن تكرر منه ذلك.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

ثم اصطفاه بالتوفيق للتوبة، وقبولها منه ومغفرة الزلة، وهداه للثبات على التوبة.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.



قال الله تعالى لآدم وحواء اهبطا من الجنة، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. أي: أنتما عدوًا إبليس وذريته، وإبليس عدوٌ لكما وعدوٌ لذريتكما.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

المراد بالذكر هنا القرآن؛ أي: ومن أعرض عن كلامي فلم يقرأه ولم يتدبره ولم يؤمن به، ولم يمتثل أمره، ويجتنب نهيته، فإن له معيشة ضنكًا.

قال ابن عباس: يريد عن موعظتي.

وقال الكلبي: عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه.<sup>١</sup>

وقيل: المراد ذكر الله باللسان كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل؛ أي: فمن أعرض عن أن يذكرني فإن له معيشة ضنكًا، وهذا المعنى وإن كان صحيحًا إلا أنه ليس هو المراد هنا بدليل قوله قبلها: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، وقال بعد ذلك: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾.

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

أي: في الدنيا، فهو في نكد دائم، وضيق من العيش، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، ولا انتهاء لهمومه.

وقيل: المعيشة الضنك عذاب القبر. فعن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: المعيشة الضنك عذاب القبر، يلتم على صاحبه، فلا يزال يعذب حتى يبعث.

قال ابن عباس: يريد ضغطة القبر حتى يختلف أضلاعه.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

أي: ونحشره يوم القيامة أعمى البصر وأعمى البصيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾<sup>١</sup>.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥)﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى.

قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً في الدنيا، ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا﴾، أي: كما أعرضت عن آيات الله، وأغفلتها وتعاميت عنها حشرناك أعمى، والجزاء من جنس العمل، ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾، ومثل ترك إياها تُترك اليوم في العمى والعذاب، ونعامك معاملة من ينسك. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾.

ومثل جزائنا المعرض عن آياتنا، نجزي من أسرف وانهمك في الشهوات، وطغى وآثر الحياة الدنيا، ﴿وَلَمْ يُؤْمَرْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾، فأعرض عنها وكذب بها. ﴿وَلْعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾.

ولعذاب الآخرة أشد من ضنك المعيشة في الدنيا، وأبقى من كل عذاب دنيوي.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَانٍ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾. الآية/ ١٢٨ - ١٣٢

مناسبة الآيات لما قبلها:



لما قص الله تعالى قصة موسى وفرعون، وقال بعدها: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾. [الآية: ٩٩]، وبين ما فيها من العظة والاعتبار، بين سبحانه وتعالى هنا ما يجب على العباد من الاعتبار بآيات القرآن الكريم التي ذكرت قصص السابقين وبينت مصارع الغابرين، وأن من أسباب الاعتبار كذلك رؤية آثارهم، والمرور بديارهم.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾.

يقول الله تعالى: أفلم يتبين لمشركي قريش خبر من أهلكتنا قبلهم من الأمم الغابرة والقرون السالفة، وهم يمشون في مساكنهم في طريق تجارتهم، وكانوا يمشون على ديار عاد، ومدائن صالح، ومدين، وقرى قوم لوط، ويرون آثارهم شاهدة عليهم، والغرض من السؤال الإنكار عليهم، والتعجيب من شأنهم في عدم اعتبارهم بمصارعهم.

وكم تفيد كثرة الهالكين ممن كذب الرسل قبلهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِرِأْسِ الْأُولَى النَّهَى﴾.

إن في رؤية آثار الأمم الغابرة لعبر وعظات لأصحاب العقول السليمة، ومن ينهاه عقله عن ورود موارد الهلاك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾.

يقول الله تعالى: ولولا كلمة سبقت من ربك يا محمد أن الله تعالى لا يعذبهم وأنت فيهم ولا يعذبهم وهم يستغفرون.

﴿لَكَانَ لِرِأْسِهِمْ﴾.

لكان الإهلاك لازماً لهؤلاء الكفرة، ولنزل بهم ما نزل بمن كذب الرسل من الأمم قبلهم.

﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾.

عطف على كلمة، أي: أن لكل أجل كتاب، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها.

أي: ولولا وعدٌ سابقٌ بتأخير العذاب عن هذه الأمة، وأجلٌ مسمىٌ لأعمارهم لنزل بهم العذاب في الحياة الدنيا، والفصل للدلالة على استقلال كلٍ منهما بنفي لزوم العذاب.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

يقول الله تعالى: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من قومك من الاستهزاء بك، وقولهم لك: إنك ساحرٌ، وإنك مجنونٌ، وإنك شاعرٌ، حتى يحكم الله فيهم، وصلِّ مسبحًا لربك حامدًا له ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: صلاة العصر، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ إِذْ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾<sup>١</sup>.  
﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾.

أي: من ساعات الليل جمع إنى، فتهجد لله وسبح بحمده، قال ابن عباس: يريد أول الليل المغرب والعشاء.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾.

المراد: التطوع في أجزاء النهار في مقابلة التهجد في آناء الليل.

وقيل: المراد صلاة الظهر؛ لأن وقتها عند الزوال وهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثاني، فجعل الطرفين أطرافًا على مذهبهم في تسمية الإثنين باسم الجمع كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾<sup>٢</sup>.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.

لعلك تنال من كرامة الله تعالى من ترضى به نفسك، وتقر به عينك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾<sup>٣</sup>.

١ - سورة الحجر: الآية/ ٩٧، ٩٨

٢ - سورة التحريم: الآية/ ٤

٣ - سورة الضحى: الآية/ ٥



وقرأ الكسائي وشعبة عن عاصم بضم التاء على البناء للمفعول؛ أي: ليرضيك الله، وتكونُ عنه مرضياً.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: لا تنظر إلى هؤلاء إلى ما منح الله تعالى إلى أصناف من هؤلاء الأغنياء المترفين نظر استحسان، فإن مد النظر تطويله استحساناً للمنظور إليه وتمنياً أن يكون للنَّاطِر، فإن ما هم فيه متاع زائل، كالزهرة التي لا تلبث إلا قليلاً حتى تذبل وتذهب نضارتها، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، لنبلوهم ونختبرهم فيما آتيناهم.

﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وما أعدده الله تعالى لك من الأجر والجزاء في الآخرة خير وأبقى من كل نعيم دنيوي.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: وأمر أهلك وعشيرتك ومن اتبعك بأداء الصلاة بأركانها وشروطها، وواجباتها، واصطبر مداوماً على أدائها.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

لا نكلفك رزقاً لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك، وفرغ بالك لأمر الآخرة، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾، أي: والعاقبة المحمودة لأهل التقوى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لِمَ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾. الآية/ ١٣٣ -

يقول الله تعالى: وقال المشركون الذين تقدمت صفتهم: هَلَّا يَأْتِينَا مُحَمَّدٌ بآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ تَكُونُ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِذَلِكَ آيَاتٍ اقْتَرَحُوهَا تَعْنَتًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦، ٧]، وما سألوا الآيات تثبتًا واسترشادًا.

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾.

أي: أولم يبلغهم ما في الكتب المتقدمة ما يدلهم على وحدانية الله تعالى وإرسال الرسل، والبشارة بخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَى﴾.

يقول الله تعالى: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين بعذاب نعاجلهم به ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾، أي: من قبل إرسال رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَى﴾، أي: لقالوا ربنا هَلَّا أرسلت إلينا رسولاً يؤمرنا بعبادتك، ويدعونا إلى طاعتك فنؤمن بك ونتبع آياتك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾، بالقتل والسبي والجزية في الدنيا، ﴿وَنُحْزَى﴾، بالعذاب ودخول النار في الآخرة.

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا﴾.

التربص: الانتظار والمكث، يقول الله تعالى: قل لهم يا محمد: كلُّ منا ومنكم منتظر ما يؤول إليه أمره، فنحن نتظر أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، وأنتم تنتظرون أن تدور بنا الدوائر، فانتظروا.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾.

فستعلمون قريباً من أصحاب الصراط المستقيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾، وستعلمون من اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد.

تم الكلام على تفسير سورة طه، والله الحمد والمنة.



## المحتويات

٣	مُتَلَمِّتًا .....
٤	تتمة الكلام على تفسير سورة الكهف .....
٢١	تفسير سورة مريم .....
٦٨	تفسير سورة طه .....
١٢١	المحتويات .....